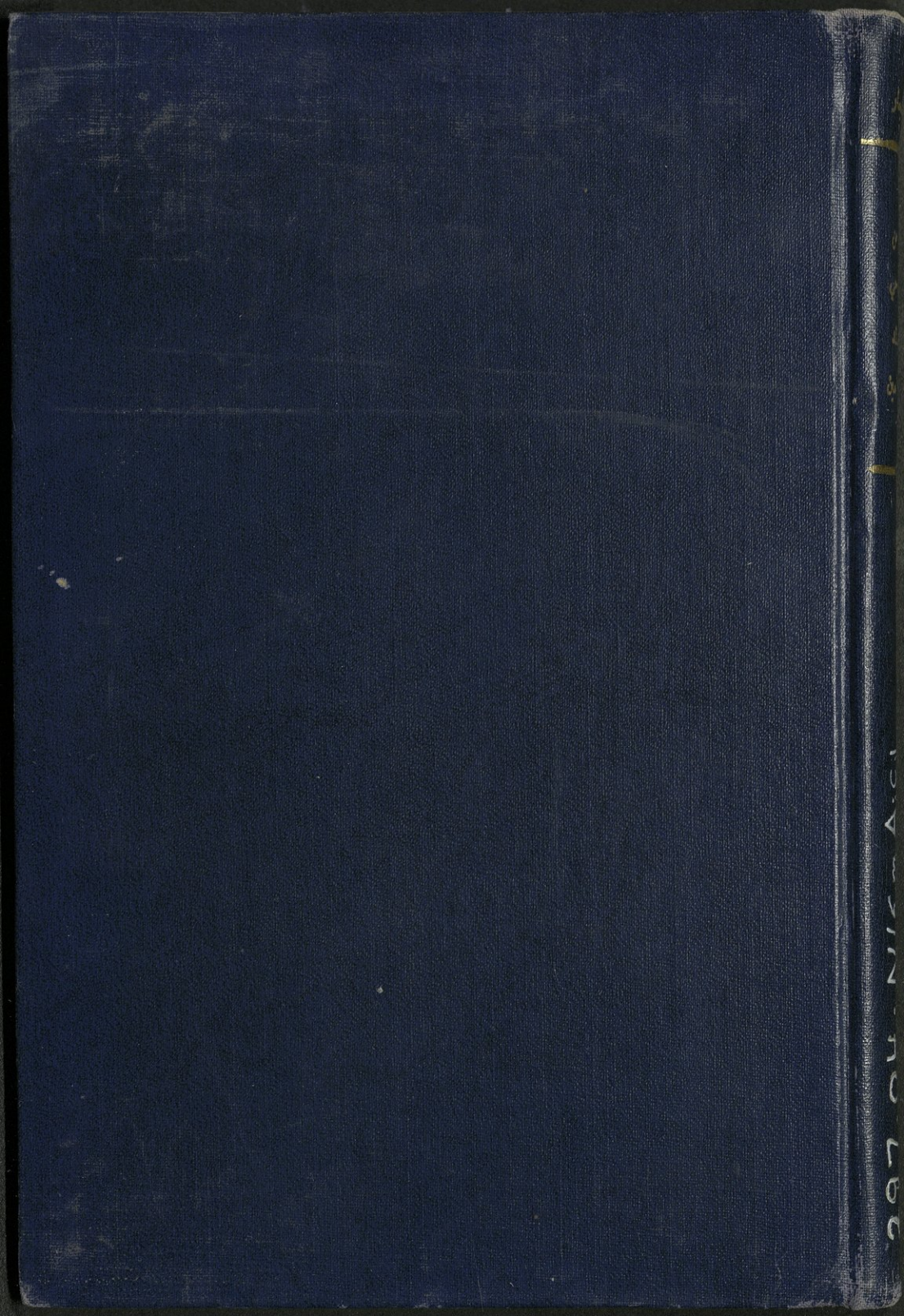




تجليد
صالح النقر
بيوت - المزرعة

297.04: N16mA

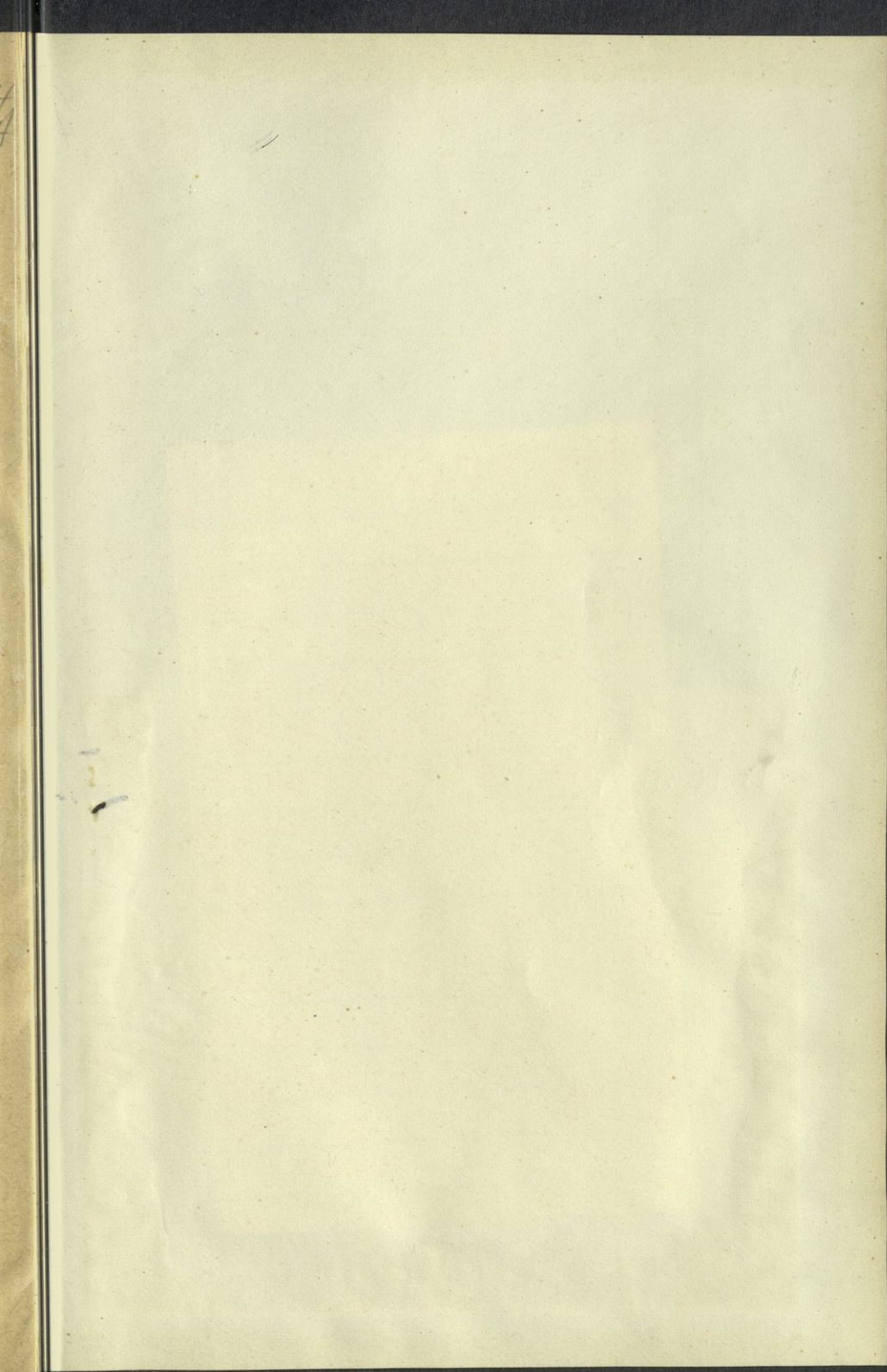
النجار، محمد الطيب.

من وحي البلد الأمين.

297.04

N16mA

- ~~6 Feb 68~~



297.04
N/6m A
C.1

من حى البلد الأمين

بقلم

محمد الطيب النجار

الحائز لدرجة الأستاذية فى التاريخ الإسلامى
وعضو البعثة الأزهرية إلى المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى

١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربى



الأهستداه

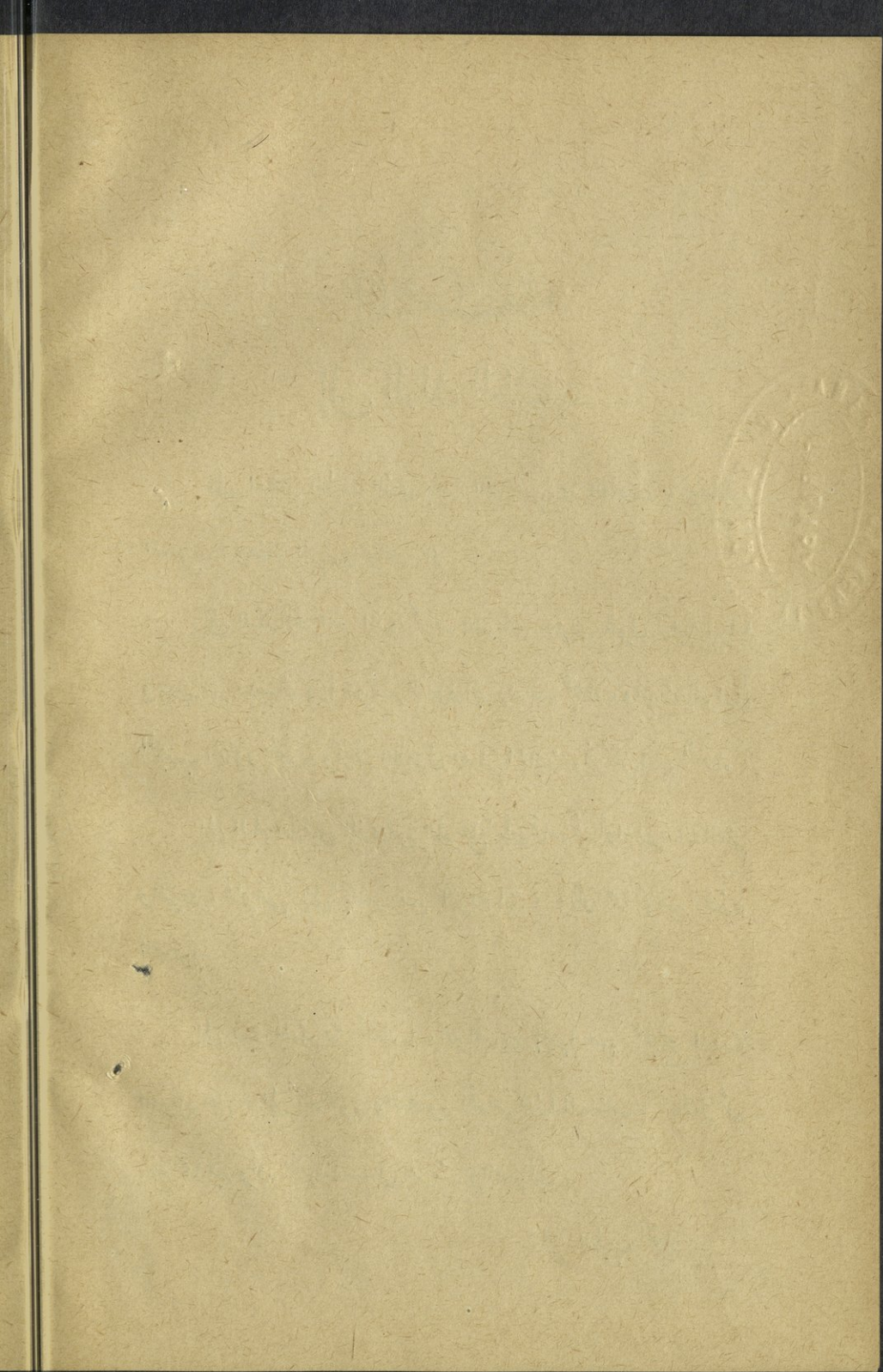
إلى البلد الطيب

إلى البلد الطيب الذي جعله الله مهوى القلوب ، وملقى
الشعوب ، ومنار الهدى والرشاد .

إلى البلد الحرام الذي كرمه الله بالاسلام فحول ترابه تبرا ،
وجعل من حصائه درأ ، وصير الفلاة الجرداء جنة فحاء ، وأثبت بالوادي
المجرب الخلد شجرة وارفة الظلال أصلها ثابت وفرعها في السماء .
إلى البلد الأمين الذي من الله على بارئقامه فيه أداء لرسالة العلم
والدين ، فأوحى إلى بكثير من الواجبات ، ولله مما أوحى هذه
الصفحات .

إلى مكة المكرمة أهلها والوافدين إليها من محجاج البيت
العتيق على نوالى الدهور والعصور أقدم هذا الكتاب ، سائلا أنه
ينفع بما فيه وأنه يلهنا سبيل الرشد والصواب .

محمد الطيب النجار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم الباحث الفير الأستاذ عبد الله عبد الجبار

مدير البعثات العلمية السعودية بمصر

١

لست أدري أأتحدث عن الكتاب ، أم عن صاحب الكتاب ، أم
أشركهما معاً فيما أنا ماض بسبيله ؛ فما لاريب فيه أن كلاهما جدير
بالحديث ، خليق بالإفاضة فيه .

والحديث عن أثر فكري ، أو إنتاج عقلي ، يستلزم في كثير من الأحيان ،
الحديث عن صاحب ذلك الأثر ، أو مبدع ذلك الإنتاج ؛ إذ هو ثمرة من
ثمارة ، تتجلى فيه روحه وثقافته ، ومزاجه وشخصيته ، وبيئته الروحية
والمادية جميعاً .

والأستاذ محمد الطيب النجار — كما عرفته — رجل لطيف التأتى ،
أنيس المحضر ، جم الحياء ، غزير العلم في غير كثير ، ولا ادعاء . . وله شخصية
محبوبة تنسم بالرزانة والهدوء ، والترثيث والأناة . . . وهو يعجبك حين
يخطب ، ويعجبك حين يتحدث . ويعجبك حين يحاضر ، ويعجبك حين
تقرأ له أثراً من آثاره العلمية في صحيفة من الصحف ، أو مجلة من المجلات .
وهو بعد ، أزهرى الثقافة والنشأة ، يمثل والده طبقة الآباء من العلماء^(١) ،
ويمثل هو طبقة الأبناء ؛ أو إن شئت فقل : يمثل والده الجيل الأزهرى القديم

(١) هو فضيلة الشيخ الطيب النجار من كبار أساتذة كلية أصول الدين .

ويمثل هو الجيل الأزهرى الجديد ؛ ذلك الجيل الذى تتبين منه حين تلقاه « مزاجاً علمياً عقلياً ، يجمع بين جلال القديم خلقاً وفضلاً وعلماً ، وبين جمال الحديث ذوقاً وسماحة وبياناً ، وفهماً لحرية البحث العلمى فهماً سليماً لا يعدو على الأصول المقررة جرياً وراء الصيت الزائف ، واصطناعاً للبطولة الباطلة — على حساب الحق العلمى والقدسية الدينية الصحيحة » ^(١).

٢

بهذا المزاج العلمى كتب الأستاذ النجار (أطروحته) القيمة التى نال بها درجة (الأستاذية) فى التاريخ الإسلامى من الجامعة الأزهرية . وهى تعادل درجة (الدكتوراه) فى الجامعات الأخرى . وقد أتيح لهذه الرسالة التى سماها « الموالى فى العصر الأموى » أن تنشر على الناس فى كتاب ، وأن يتلقاها المعنيون بالدراسات الإسلامية بما هى أهل له من التقدير والإجلال والإعجاب والإكبار ؛ ذلك لما عُرِف به صاحبها من دقة فى البحث ، وصحة فى النهج ، وإيثار للحق ، وبُعْدٍ عن الغرض ، وتَوَخُّحٍ للأمانة العلمية أصدق ما تكون الأمانة العلمية !! .

وحسبك — أيها القارئ الكريم — دليلاً على ما أقول ، أن أستاذاً كبيراً من أساتذة الجيل فى جامعة فؤاد الأول ، وهو صاحب العزة الأستاذ أحمد الشايب بك يقول عنها : « هذه رسالة يجب أن تخرج إلى السوق العلمية لتلقى جزاءها ، وتؤدى واجبها الثقافى ؛ ولا يصح أن تحبس فتنسى ، أو تنشر بعد أوانها ، أو تصير نهباً للعادين » . ولا غرو فهى أحسن وأوفى مرجع فى هذا الموضوع .

(١) من تقديم صاحب العزة أحمد الشايب بك لكتاب « الموالى فى العصر الأموى » للأستاذ النجار .

وبهذه الكفاية العلمية الراقية ، والرأس المتوّج بأرقى الشهادات ، أقبل الأستاذ « النجار » يسعى إلى البلد الأمين ، ليؤدّي رسالة العلم والدين ، حينما اختاره الأزهر الشريف عضواً بالبعثة الأزهرية للتدريس بالملكة العربية السعودية . . أقبل وبين جنبيه همّة عالية ، ورسالة سامية ؛ فلم يقتصر نشاطه التقاى بمكة المكرمة على إلقاء الدروس والمحاضرات بكلية الشريعة أو المعهد العلمى السعودى ومدرسة تحضير البعثات ، وإنما امتدّ إلى أبعد من ذلك ؛ فقد كان ، ولا يزال ، يساهم بمجهودات عظيمة فى الرقىّ بمجاعة المسامرات الأدبية يُفيض عليها من روحه وبيانه ، ويُسبغ عليها من علمه وأدبه مما كان له أثر كبير فى تقويم النشء ، وصقل ملكاته ، وشحذ هممه ، وتوجيه حياته وجهات صالحة ، حتى أصبح الأستاذ بذلك أقوى ساعداً لرئيسها الشاب الناهض الأستاذ عبد الله بغدادى وكيل مدرسة تحضير البعثات .

وإنه لمنظرٌ رائع جميل يغمرك بالغبطة والسرور ، أن ترى الأستاذ الجليل وهو منطلق بطلابه فى كلية الشريعة إلى غار حراء أو غار ثور يُلقى عليهم الدروس والعظات نماذج حية فى نفس المغافى المقدسة التى جرت فيها الأحداث التاريخية الفاصلة ، حيث كان نبينا العظيم يتلقف الوحي والتنزيل ، أو كان يفر يدينه من وجه الشرك والطغيان إلى مستقر الأمن والسلام والاطمئنان !

وليس هذا فحسب ، بل إن للأستاذ النجار ألواناً أخرى من النشاط الثقافى والدينى والأدبى فى صحيفة البلاد السعودية ، ومجلة الحج الغراء ، وفى الإذاعة اللاسلكية للمملكة العربية السعودية . . أحاديث ومقالات قد ضُمَّتْ بعبير البيت الحرام !

وهذا النشاط الممتد دليل حيٍّ على فهم عميق لرسالة المبعوث التي يجب
« ألا تقتصر على دروس تُلقى بين جدران المدارس والمعاهد » بل يكون صاحبها
« كالبلبل الغريد يقع على كل غصنٍ ، ويسجع في كل روض ، ويغدو
ويروح من دوح إلى دوح ، ويتنقل في مملكة الفضاء كما شاء وأينما شاء ^(١) » .

٤

جاس الأستاذ النجار خلال المغاني المقدسة ، وطافت روحه حول البيت
العتيق فامتلاّت نفسه بالمعاني الروحية ، التي انثالت على قلمه ، فكان منها
هذا الأثر الحميد « من وحى البلد الأمين » الذي أتشرف اليوم بتقديمه
 للقارئ الكريم .

وإذا أردنا أن نعقد مقارنة وجيزة بين الكتاب السابق والكتاب
اللاحق قلنا : إن كتاب (الموالى في الإسلام) كتاب علمي تاريخي يتناول
موضوعاً خاصاً وقد كُتِبَ لخاصة القراء ؛ على حين أن كتاب (من وحى
البلد الأمين) كتاب يشمل موضوعات تاريخية واجتماعية وتهديبية متفرقة
ويقصد به خاصة القراء وعامتهم على السواء .

٥

وإن هذا الكتاب الجديد ليعرض فيما يعرض ضروباً من الأخلاق
الإسلامية السامية كالصبر والإيمان ، والإيثار والإحسان ؛ يعرض لها كما يدعو
إليها القرآن ، وكما تصفها السنة ، وكما تؤكدّها أقوال الصحابة ، وأعمال المجاهدين
الأوليين . كما يرسم ألواناً من الجهاد المقدس في سبيل المبدأ والعقيدة ، وفنوناً
من الصراع بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، بين العدل والظلم ، بين
رأس الشرك الآفن الخرف وبين نور التوحيد الخالد . . كما يعالج أمراضاً

اجتماعية انتشرت في البيئات الإسلامية فكانت سبباً في تدهورها
وانحطاطها وتقهقرها.

وقبل أن أمضى في العرض والتحليل ، أحب أن ألاحظ للقارئ الكريم
أن المؤلف حين اعتمد طبع هذا الكتاب كان حريصاً كل الحرص على
ألا يشعر القارئ في طريقه بشيء من النصب واللغوب ، أو يحس أنه قد انتقل
من جوٍّ إلى جوٍّ غريب .

فالكتاب — وإن كان مجموعة من خواطر متنوعة ، وطائفة من بحوث
ومقالات متفرقة كتبت في مناسبات مختلفة — إلا أن مؤلفه — على الرغم
من ذلك كله — قد تخير لكل بحث من بحوثه موضعه اللائق . حتى أن القارئ
إذا تنبّع الكتاب من أوله لم يشعر في طريقه بانتقال مفاجيء ، أو تغير طارئ
بل يشعر بالصلة والقراءة بين الموضوعات المتجاررة ، فالنصف الأول من
الكتاب ينتظم مجموعة من البحوث التاريخية ، إذا استثنينا (الوازع الديني)
وقد خضعت كلها للترتيب الزمني والتسلسل التاريخي ، وإنما كان « الوازع
الديني » في هذا الموضع المتقدم ، لأنه القوة الدافعة التي تؤثر في سلوك الناس
وتصرفاتهم ، ولولا ما في الكلمة الأولى « للبيت ربّ يحميه » من روعة
الذكرى وبراعة الاستهلال ، لكان الوازع الديني أول موضوعات هذا الكتاب .

وينتظم النصف الثاني من الكتاب مجموعة من الكلمات الدينية
والاجتماعية ، وقد راعى في ترتيبها أن تكون هناك صلة بين كل موضوع
والموضوع الذي يليه ، وأظن أن من السهل على القارئ أن يدرك العلاقة
بين « الرشوة » و « نهب مال اليتيم » وأن يدرك العلاقة بين هذين ، وبين
« نزغات الشيطان » أو العلاقة مثلاً بين « التغالي في المهور » و « حقوق

الزوجية » و « التوصية بالوالدين » ونصائح « الأب إلى أبنائه » وكذلك العلاقة بين « لمن هذه الدنيا ؟ » وبين « الحياة الخالدة » .

قام المؤلف المفضل بهذا اللون من الترتيب والتنسيق ، بينما نرى كثيراً من أجلاء المؤلفين لا يحفلون بترتيب المقالات التى تجمع فى كتاب . . . ولقد أضاف المؤلف بذلك حسنة إلى حسنات . . .

وقد كان أكبر احتفالا وأدق نظاما فى تنسيق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنوادر والطرائف والكلمات الحكيمة التى تجدها مبثوثة فى ثنايا هذا الكتاب فلا تكاد ترى شيئا منها فى غير موضعه المقسوم له ، ومكانه اللائق به .

٦

والأستاذ المفضل لا يعنى بتفصيل الأحداث ، بقدر ما يعنى بتلمس العبر والعظات ، والاهتمام بالجواهر ، لا بالعرض ، وباللباب لا بالقشور ؛ أفلا يروقك أن تقرأ موقف الدين الحنيف من العصبية القبلية والعصبية العربية ، « وكيف أشرف الإسلام على العالم بدستور قوى متين يدعو إلى مكارم الأخلاق ، وينشر العدالة والمساواة بين جميع الأمم والأفراد ، وينفى الفوارق بين العرب والعجم ، فليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى » .

ألا يروقك أن ترى بلالا الحبشى مؤذن الرسول يدفعه النبى بأصلاحه وبلانه إلى أعز مكانة وأسمائها ، وصهيباً الرومى يقدمه الفاروق على المهاجرين والأنصار فيصلى بالناس أماما ، وسلمان الفارسى تنسيه عدالة الإسلام جنسيته حتى ليقول مفتخراً : أنا ابن الإسلام ، مما ينطبق عليه قول الشاعر :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم^(١)

ألا يعجبك أن تقرأ هذا الكلام وتتخذهُ لك نبراساً .
 « إن العقل والدين يقضيان بأن يسعى الإنسان لغرض خاص هو إرضاء الله ، ولا يعنيه بعد ذلك أن يرضى الناس أم سخطوا ، أعلنوا الحرب عليه ، أم سالموا ، والعقل والدين يقضيان ألا يحامل الإنسان أحداً على حساب الحق والخلق ، وألا يتغاضى عن منكر من القول أو الفعل إرضاء لعظيم أو كبير ، وألا يسلك سبيل المداينة والرياء والمراوغة والالتواء ، فيسكت عن ظلم الظالم وإثم الآثم حرصاً على منصب أو إرضاء لحاكم^(١) » .

٧

ربما قلت -- أيها القارئ الكريم -- إن كثيراً مما ذكر في هذا الكتاب معروف مطروق ، ولكن ما أكثر العلم المعروف الذى يحتاج إلى تأكيد ! وما أكثر المعانى المطروقة التى تفتقر إلى عرض جديد !! وهذا ما فعله الأستاذ النجار فقد عرض لنا « من وحي البلد الأمين » ما عرض فى أسلوب شائق جذاب تلمس فيه شخصيته واضحة المعالم والسمات ؛ أناة وتريثاً وهدوءاً فى أغلب الأحيان ، وثورة وانفعالاً وغضباً فى قليل من الأحيان ، ولسكها ثورة الإيمان ، وغضب الرجل الصادق الوجدان على الإنسان الذى يمحّد حقوق أخيه الإنسان ! استمع إليه وهو يشور على الذين ينفذون أوامر الله ما دامت لا تتكلف شيئاً من المال فإذا ما جاء دور الزكاة والإحسان إلى الفقراء وآوا فراراً ، فيقول : « وترى^(٢) الرجل منهم وهو يمشى على الذهب ، ويتبخر ويختال بين الحرير والفرش الوثير ، ويبيعثر الأموال لإشباع الشهوات الدنيا ، والملذات الشيطانية الخبيثة ، ومع ذلك يرضن بالمال اليسير على البأس الفقير ،

(١) من موضوع « رضا الناس غاية لا تدرك » ص ١٦٠

(٢) ص ٨٥ ، ٨٦

وإذا ما حاولت أن تستصرخ همته (الوانيسة) نحو إغاثة المعوزين وإعانة المحتاجين . وقلت له فلان فقير يستحق العطف والرعاية ، أجايبك في تبجح واستهتار « رزقه على الله » « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » . وكأنما يظن أولئك السفهاء أن الله سينزل على الفقراء مائدة من السماء ، فيا للعجب !! وبالله لهذا المنطق السقيم والطبع الخبيث اللئيم » .

وموضوع الصبر قد عالجته كثير من رجال الدين على النحو التقليدي المكرور المعروف ؟ ولكن الأستاذ النجار حين أراد الكتابة فيه عالجته على نحو جديد إذ تخيل ظلالاً وارفة هي جنة المؤمنين في الدنيا يفرون إليها حينما تفاجئهم الحياة بما تحمله من متاعب وآلام وعنت وإرهاق ومخاوف ، فيجدون فيها من الخير والمتاع ما يبذل خوفهم أمناً وألهم أملاً وما يجعل من متاعبهم راحة وسعادة وطمأنينة ، ثم يظنون ينعمون بهذه السعادة الروحية والطمأنينة النفسية حتى تنطوي حياتهم ، ويحییء أجلهم ، وإذا ذلك ينتقلون من هذه الظلال إلى ظل دائم ظليل « وليست هذه الظلال إلا « ظلال الصبر الجميل » وعلى هذا النمط الطريف يمضي إلى نهاية الموضوع ^(١) .

وما أجهلها لفظة ، تلك التي تلمح فيها فطنة العالم الديني حين ينتفع بنظرية من نظريات علم النفس الحديث ويبني عليها موضوعاً من موضوعاته الدينية أو الاجتماعية ! استمع إليه وهو يرد حلف الخلافين إلى مركب النقص «inferiority Complex» أو كما يُعبر ادلر نفسه بـ «inferiority feeling» الشعور بالنقص « فيقول :

« الشعور بالنقص في ناحية من النواحي يدفع صاحبه دائماً إلى أن يحاول تغطية هذا النقص وستره بوسائل كثيرة ، وقد يندفع الشخص أحياناً إلى هذه

المحاولة دون أن يفكر في أنها تغطي نقصاً لديه أو تستر عيباً فيه ، ومثل هذا التصرف يكون من عمل العقل الباطن » .. إلى أن يقول : « وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن هؤلاء الذين يعمدون إلى الحلف بسبب أو من غير سبب ، ويدعمون كلامهم بالقسم واليمين دون ضرورة تلجئهم إلى هذا القسم واليمين ، هؤلاء بلا شك كأنهم يحسون أن الناس قد نفذت إلى ضمائرهم وعرفت الحقائق فهم يغطونها عن عيون الناس بما يثيرونه من ضباب أو دخان وأعني بهذا أيمانهم الكاذبة التي يخفون بها ذلك الزور والبهتان ^(١) » .

وقد كان من رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسير سورة الفيل أن الطير الأبايل هي الرياح المتجمعة ، وأن الحجارة من السجيل هي ذرات التراب التي حملت ميكروب الجدرى ففتك بأصحاب الفيل ، وهو تفسير يستهوى النفوس التي تعشق الجديد والظريف ، وقد وقع في نفسى موقعا حسناً لجدته وطرافته ، وكنت أفضله على ما قاله المفسرون في هذه السورة .

ولكني حينما قرأت نقد الأستاذ النجار لهذا رأى عدلت عنه لأنه أتى بالحجج الدامغة التي تدحضه وتبطله ، وذلك حيث يقول :

« إنه لم يعهد في لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبايل أى جماعات من الطير ، ولا ينبغي أن يقال ذلك إلا بطريق مجازى بعيد ، ولا يصح أن يُلبأ إلى مثل هذا المجاز ما دامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله ، ولا يقبل أيضاً أن يقل عن ذرات التراب إنها حجارة من سجيل أى من طين مطبوخ (وهو الآجر) .

وإذا كانت الرياح قد حملت ميكروب الجدرى ، فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟

وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم ، وبعضهم من أعداء الرسول ، فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية ، والحجارة حجارة حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد ويتنزهها فرصة في السكيد لمحمد والطعن عليه ، ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها ، ولا يجروأ أحد على إنكارها^(١) .

وعلى هذا فالطير الأبايل هي الطيور الحقيقية المعروفة لدى العرب ، ولعلها قاذفات للقنابل جاءت إلى هذا العالم قبل الأوان . لم يصنعها إنسان ليبطش بأخيه الإنسان ، ولكن صنعها القهار ليكبح بها جماح الظلم والعدوان .

٨

وقد عالج المؤلف فيما عالج ، مشكلة الفقر والتسول ، وجعل الزكاة وكفارة الذنوب والخطايا علاجاً لها ، وانتهى إلى دعوة الأغنياء إلى البذل والإحسان ، ودعوة الفقراء إلى الجد والعمل ارتقاءً بنفسيتهم عن ذل السؤل ؛ ولكن ، كم كان بودى لو أنه أبان لنا رأى الإسلام في (الضمان الاجتماعي) ضد الفقر والمرض والعجز والعوز واليتيم و (الترميل) وما إليها ، وأوضح لنا ما إذا كان من الواجب انتشار هذا الضمان في المملكة العربية السعودية ، والدول الإسلامية عامة ، وما هي الأسس الإسلامية الصحيحة التي يجب أن يبنى عليها .

ولكم كنت أود كذلك لو أن المؤلف حين عقد المقارنة بين يهود الأمم ويهود اليوم ، لو أنه أشار إلى ما يجب على المسلمين عمله إزاء هذه الشوكة

العتية في قلب العروبة ، تلك هي دولة إسرائيل التي لم تعد (مزعومة) كما كانوا يقولون ، ولكنها أصبحت دولة قوية لا تعتمد على الختل والمسكر والخديعة والمداينة وحسب ، ولكنها تقوم على دعامتين أساسيتين من العلم والمال أولاً وقبل كل شيء ، فما أكثر ما لديهم من مصانع تنتج في الخفاء من أدوات الحرب والفناء ما الله به عليم ، وما يخشى منه على تهديد البلاد العربية جميعاً وغزوها بعد أن اقتطعت منها هذا الجزء الخصب النابض بالحياة .

أين زعماء المسلمين ؟ أين أغنيائهم ؟ أين علماءهم في الذخيرة والسلاح ؟ أين مصانعهم التي تنتج القنابل والمدافع والدبابات ؟ ؟ أين أين ؟

لست أدري إلى متى سيعمل هذا الشرق الاسلامي المسكين عالة على الغرب حتى في أدق الأشياء وأكثرها مساساً بحياته . . إلى متى سيبقى تحت رحمته في وسائل الدفاع عن نفسه وحفظ كيانه والذود عن حياضه !! أين شوكة الاسلام ؟ أين عزة المؤمنين التي يقول فيها الله جل جلاله « والله العزة وللرسوله وللمؤمنين » ؟ ألا ، إنه لإعزة للمؤمنين اليوم إن لم يكن لهم علم دينوي نافع — بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها — بجانب علمهم الديني ، وقوة في العتاد والسلاح إلى جانب قوة الأخلاق تدفع عدو الله ، وتدرأ عنهم الشر والظير والظلم والبغى والاستعمار والظغيان ؟ ! .

وبعد فلا أريد أن أسترسل في هذه الخواطر التي أثارها في نفسي هذا الكتاب وحسبي أن أقول كما قال عميد الأدب العربي معالي الدكتور طه حسين باشا « إن خير الكتب عندي ما يثير في نفسي الخواطر » .

وكل وحدة من هذه الخواطر خليقة بالدرس جديرة بالتفصيل ، وأكبر الظن أن مؤلفنا المفضل قد عقد لها فصولاً خاصة في كتيبه الجديدة التي اعتمر إخراجها بعد هذا الكتاب .

ثم ماذا؟ ثم لم يبق إلا أن أترك القارئ الكريم يستمتع برحلة جميلة في هذا السفر القيم كما استمتعت ، ويفيد منه كما أفدت ، وأية رحلة أحفل بالأنسة والإمتاع من أن يظل المرء حيناً من الزمان في جو يشع بالإيمان وترفرف عليه روح الإسلام ، ويصافح فيه نفوس المؤمنين الخالدين ؛ فيأنس بما كانوا عليه من مثل سامية ، وشمائل عالية ، ويستخلص العبر والعظات من المقارنة بين الماضي والحاضر إلى غير ذلك من استنهاض للنفوس واستحثاث للهمم

كل ذلك في أسلوب تتجلى فيه لباقة العالم الأديب حين يعرض لموضوعات مهمة فيها شيء من التعقيد ، وشيء من الحرج ، وشيء من اختلاف الآراء ، يعرض لها بالتيسير والتقريب ، والتسهيل والتبسيط ؛ فإذا هي واضحة جليلة في عبارة بليغة قبست من بيان القرآن بياناً ومن روحه إيماناً ، وجرت بذلك إلى العقول والقلوب لتؤثر فيها أيما تأثير من أيسر طريق وأقرب سبيل !

ولم يبق بعد هذا إلا أن أسأل الله الكريم أن يعم به النفع جزاء ما بذل فيه مؤلفه من جهد ، وما يستكن في سريره من إخلاص ؛ وبقدر ما تنطوى عليه جوامحه وجوانح أمثاله من المسلمين من إيمان عميق وإحساس صادق وشعور قوى — أقوى ما يكون الشعور — بحاجة الأمة الإسلامية إلى البعث والأحياء والنهوض والإصلاح ، إنه سميع مجيب ، وهو الهادي سواء السبيل .

دار البعثات السعودية

بمصر

٢٠/١٢/٧٠

٢٢/٩/٥١

عبد الله عبد الجبار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أربعة عشر قرناً من الزمان منذ أشرقت الأرض بنور ربها ، وانبعث الحق المبين في أرجاء الجزيرة العربية ، ونادى به النبي الأُمِّي العربي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلوات الله وسلامه عليه ، بين صخور مكة العاتية وأحجارها الصم الجلايد ، ووسط الظلمات المتكاثفة من أفن الرأى وفساد العقيدة وطنيان الأثرة وتحكم الأهواء والشهوات .

واقدمت هذه الدعوة الإسلامية في طريقها الطويل بكثير من المتاعب ، وتعرضت للأنواء المتقلبة والتيارات المتضاربة ، وصادفها لفح الهجير وعنت الزهريز وعسف الأعاصير ، فكان لها من قوة الأصل ومثانة العود ورسوخ الأساس ما يمكن لها من الحياة ، ويعينها على الصبر والثبات ، ويمدها بالغذاء حتى تنجلي عنها ليالي الحزن والشقاء ، ثم يطالعها في أعقاب ذلك فجر بهي السناء مشرق بالضياء . .

وما من قطر أو مصر انسابت إليه تلك الدعوة الخالدة إلا وقد هيا الله لها من يحفظها ويرعاها ، ويدراً عنها عواصف الحزن وعوادي الزمن ، بل يحمل للمصباح لينير الطريق ، ويعلم الكفاح ليفسح المجال ، ولتزل العوائق والحواجز فيدخل الناس في دين الله أفواجاً دون خوف من اضطهاد وفتنة ، ويسود العدل والإنصاف بين العالمين ، وتنتشر مبادئ الدين في كل وقت وحين ، وصدق الله العظيم « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَاطِطُونَ » .

وحينما فتح الإسلام مصر كانت كالأرض النقية أصابها الغيث الوفير فقبلت الماء وأنبت الكلاً والعشب الكثير ، وظل المسلمون ينعمون أجيالا بين تلك الظلال الوارفة حتى أسس الأزهر في القرن الرابع الهجرى بمدينة القاهرة^(١) ، فكان — ولا يزال — الكعبة الثانية للإسلام . والمنارة الهادية للأنام ، يتلقى النور من منبعه كما يتلقى القمر ضوءه من الشمس ، ويستقى الهدى من مشرعه كما يستقى البحر ماءه من السحاب ، وغدا « منذ قرون عشرة موئل العلم والفلسفة والدين يحفظها ويدرسها ويفتح في ميادينها . . . ويسجل آثاره متوناً وشروحا وحواشى وتقارير ، ويتركها للأجيال تقرأ فيها جهود الجبابرة الصابرين^(٢) » .

وللأزهر الشريف رسالة سامية يطالب الدين أولى الأمر في كل زمان بتحقيقها مهما وقفت الحواجز وعظمت التضحيات « فيجب أن يكون الأزهر فكرة وقيامة على العالم الإسلامى أو العالم كله يتولى أمره ويكمل نقصه . ويعد نفسه مسئولا أمام الله عن سلامته الروحية والمادية فيستبق رجاله إلى رعاية المسلمين في أطراف المعمورة يقومون دينهم وديانهم ولا يقفون عند حدود الوظيفة ورسومها التى تحبس جهودهم وتغل نفوسهم ، وتفقدهم ما هم أهل من كرامة وزعامة تضعهم فى الطليعة أمام الناس جميعا^(٣) » .

ولقد أذن الله أن تتحقق هذه الأغراض أو الكثير منها فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، إذ أحسَّ الأزهر أنه لا يصح أن يحبس مجهوده ، وتغل جهوده ، ويدور حول نفسه فى إطار ضيق الجوانب ، ففتح بين أيدي أبنائه

(١) بناه جوهر الصقلى سنة ٣٦٠ هـ

(٢) من الكلمة التى كتبها صاحب الغزة الأستاذ الكبير أحمد الشايب بك فى تقديم

كتابنا « المولى فى العصر الأموى » .

(٣) من التقديم السابق للأستاذ الشايب بك .

ميادين العمل من كل جانب ، وحملهم الأمانة فنفروا سراءاً ، وخرجوا تبعاً وتخطوا حدود مصر إلى غيرها من الممالك العربية والإسلامية ، يساهمون في تدعيم الهضات ، وتنمية الثقافات وتقوية أواصر العروبة والأخوة الإسلامية وهما هي ذى بعثات الأزهر الثقافية تنهض للقيام بهذا الواجب الكريم في السودان ، وفي سورية ولبنان والعراق والمملكة العربية السعودية والكويت وأريتريا وغيرها ، ولا يَصْنُ الأزهر بأبنائه وعلمائه في هذا السبيل ، حتى لقد بلغ عدد أعضاء البعثة إلى المملكة العربية السعودية وحدها أكثر من ثلاثين من علماء الأزهر الممتازين .

ولقد أشرق قلبي بالغبطة ، وفاضت نفسي بالسرور حينما صدر قرار الأزهر باختياري عضواً في البعثة الأزهرية إلى المملكة العربية السعودية ، وذلك لما تحتله هذه البلاد المقدسة من مكان كبير في قلب كل مسلم وكل عربي ، ولما يتيح ذلك لي من فرصة نادرة هي فرصة الكشف والاستطلاع للآثار الإسلامية الأولى في أماكنها الحقيقية ومواقعها الأصيلة ، ولما ينطوي عليه هذا الاختيار من ثقة غالية وتقدير كريم ، ثم تضاعفت الغبطة والسرور حينما استقر بي المقام في مكة المكرمة إلى جوار البيت العتيق وفي ظلال الحرم الآمن حيث أسند إليّ التدريس في المعهد العلمي السعودي ^(١) ، وفي معهد تحضير البعثات ^(٢) . ثم في كلية الشريعة الإسلامية ^(٣) .

(١) معهد ديني في مكة يكاد يتفق في برامجه مع الأقسام الثانوية بالأزهر والمعاهد الدينية في مصر .

(٢) معهد يتفق مع المدارس الثانوية في مصر ويلحق المنتخرون فيه بالجامعات المصرية .

(٣) أنشأها منذ عامين في مكة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل الجزيرة العربية لتخريج القضاة والمدرسين الوطنيين ، وزودها بوسائل التشجيع الأدبي والمادي ، =

ولا غرو أن واجب المبعوث أسمى وأجل من أن يقتصر على دروس تلقى بين جدران المدارس والمعاهد ، فذاك نطاق ضيق لا يقبله إلا العقل المريض ، وأفق محدود لا يقنع به إلا الطائر المهيض ، وإن منطق الإخلاص ليحتم على كل عالم أن يكون مرآة صافية لا يكدر صفحتها صدأ الإهمال ولا يشوهها غبار الأثرة والأنانية ، ونجماً لالألاء يبدد ظلام الخفاء في كل زمان ومكان ، وبلبلًا غريداً يقع على كل غصنٍ ويسجع في كل روض ، لا تقيده قيود ولا تقف دونه سدود ، بل يغدو ويروح من دوح إلى دوح ، ويتنقل في مملكة القضاء كلما شاء وأينما شاء .

وفي مكة المكرمة مجال واسع ومتنفس رحب للعالم والأديب ، وإن جوها الروحي الجميل ليبعث في النفوس الذكريات الخالدة ، فلا تلبث هذه الذكريات أن تنطلق من الجنان لكي تبرز للعيان صورة مشرقة ، وتجري على اللسان لحنًا جميلًا يهز المشاعر وتصغى إليه القلوب قبل الآذان .

والحديث عن المجالات الأدبية في مكة حديث تتسع أكنافه ، وتتشعب أطرافه لمن وقف على شعاب مكة وقفة الفاحص المتأمل لا وقفة الزائر العابث ، ولم يكتف بمظاهرها الواضحة بل نفذ إلى ما وراء الكهوف والمغاور ، بيد أننا سنختص بحديثنا في هذا الكتاب بعض هذه المجالات وسنجتزئ الكلام آملين أن نفصل الحديث عنها وعن غيرها في كتاب آخر اعتزمنا إصداره إن شاء الله تحت عنوان « الحجاز كما رأيته » ، سائلين الله أن يحقق آمالنا ، وبقينا شر الزلل والعثار .

= واختار لها الأساتذة الأكفاء من علماء الأزهر المدرسين بالكلية العالية ، ووضع لها فضيلة الشيخ محمد بن مانع مدير المعارف السعودية من البرامج الدراسية ما يجعلها في مستوى الكليات الأزهرية ، واخصها فضيلته بعناية فائقة فتولى عمادتها ولم تصرفه المشاغل الكثيرة عن مراقبتها بعين اليقظة والعدالة .

ولا غرو أن الإذاعة اللاسلكية السعودية من أهم هذه المجالات الأدبية ،
فهي لسان فصيح ينطق بما لهذا القطر الشقيق من مجد عتيد وفضل تليد ،
وهي منبر كريم يرتفع فيه صوت الحق فيمتخطى الأودية والجبال ويمتاز القفار
ويعبر البحار ، ويهتف في أذن الحياة بما وصلت إليه هذه البلاد من نهضة
وحياة ، وهي ميدان حُرٌّ يتلاقى في رحابه الأساتذة الوطنيون والمصريون
فيقومون بواجبهم في سبيل العروبة والإسلام .

ولعل هذه الإذاعة — فيما أعلم — هي أول إذاعة في العالم تسيطر عليها
الروح الجدية ، وتنأى عن الهزل والعبث . وحسبك أنها لاتذيع شيئاً من
الغناء الرخيص أو الروايات الماحجة ، ولا يُسمع فيها صوت المرأة ، وإنما
تقتصر برامجها على القرآن الكريم والأحاديث الدينية والعلمية والأدبية ،
والتربوية والرياضية والصحية والروايات التاريخية والاجتماعية التي ترمي إلى
غاية كريمة وهدف سليم ، وهي تذيع فوق برامجها العربية برامج بالأردية
والملاوية ، وتعمل على إدخال برامج باللغة التركية .

وقد تبدو الإذاعة السعودية من أجل ذلك في نظر الجماهرة من المستمعين
جافة قاسية . إذ أن الكثير من الناس ينظر دائماً إلى الإذاعات على أنها
أداة تسلية وترويح عن النفوس قبل أن تكون مدرسة للتعليم والتهديب ،
وقد لاحظ السادة المشرفون على تلك الإذاعة هذه الظاهرة من المستمعين ،
فجاهدوا جهاد الأبطال للتوفيق بين ما تفرضه تقاليد هذه البلاد وعاداتها
المستمدة من الدين الحنيف ، وما يتطلبه السامع المثقل بالتكاليف والأعباء
من بهجة وترويح وتخفيف . وأشهد بحق لقد خطوا في سبيل النجاح خطوات
رشيدة ، كان لها أثرها الطيب ، وسيكون لها عما قريب نتائجها المحمودة .
ويسرني في هذه المناسبة أن أذكر بمزيد من التقدير فضيلة الأستاذ

السيد محمد شطامير الإذاعة السعودية ، وأثنى كل الثناء على مجهوده وإخلاصه وأحيى أسرة الإذاعة تحية الإعجاب لاسيما الإخوة الأماثل أحمد الفاسي وحسن قرشى وطاهر زحشرى وعبد الجليل أسعد وعبد الله المزروع وعبد الله المنيعي ومحسن باروم ، وأشكر لهم ما لقيت من تقديرهم الكريم ومعونتهم الصادقة التي طالما حفزتني إلى العمل ، وشجعتني على مواصلة الجهد دون سامة أو ملل ، حتى لقد أذعت في عامين دراسيين ما يقرب من خمسين حديثاً سجلت قرابة نصفها في هذا الكتاب ، وأبقيت النصف الآخر إلى فرصة ثانية أرجو أن تكون قريبة إن شاء الله .

وندوة المسامرات الأدبية بمكة لها — كذلك — في هذا السبيل فضل كبير ، فهي سوق علمية أدبية يقيمها المعهد العلمى السعودى ومدرسة تحضير البعثات عصر يوم الخميس من كل أسبوع ، وفيها يتلاقى طلاب المعهدين مجتمعين بأساتذتهم ، ويتلاقون أيضاً بأقطاب الأدب وقادة الفكر وبالرأى العام المستنير ، فيعرض الطلاب ثمرة دراستهم ، وتناجق قرائحهم ، في أسلوب أدبى ، ويتبارون في ميدان الخطابة تبارى الفرسان . وقد يشترك معهم بعض الأساتذة والأدباء ، فيسكبون نصائحهم ، ويقدمون تجاربهم هدية سائغة لأبنائهم الطلاب في جو علمى جميل يملأ النفس جلالاً وروعة .

ومن الحق علينا أن نعترف بما لهذه الندوة المباركة من آثار قوية في النهوض بالروح الأدبية لدى الطلاب ، وتقوية الناحية الخطابية فيهم ، وحفزهم إلى التنافس الشريف الذى لا تشوّهه الأنانية ، ولا يكدر صفاءه الغرور ، والذى يبني ولا يهدم ، ويعمر ولا يدمر .

ومن الحق علينا — كذلك — أن نذكر بالثناء والتقدير رئيسها المرحوم

الفاضل الأستاذ عبد الله بغدادى ، فلقد كان لجهوده الموقفة ونشاطه الرائع وأدبه الجم وخُلُقِه الكريم الأثر البالغ فى النهوض بهذه الندوة ؛ حتى لقد لمعت فى سماءها نجوم لن يطول عليها الزمان حتى تمضى صُعداً لى تشرق فى أوسع أفق وأسمى مكان ، ونذكر على سبيل المثال الطلاب الأدباء جميل ششه ، وعباس فائق غزاوى وعبد الله القرعاوى وهبى الرحمن المنصورى ومحمد سعيد خوجه ومحمد طاهر الفاسى ومصطفى عطار ويس العلاف . ونسأل الله أن يكتب لهم ولإخوانهم الحظ الباسم والمستقبل السعيد .

وما من مرة وقفت فى ندوة المسامرات خطيباً ، أو جلست لأستمع إلى خطابها إلا ورجعت بالذاكرة إلى العهود القديمة بالحجاز ، فى عكاظ ومجنة وذى الحجاز ، وتمثلت القبائل العربية وهى تتوافد فى مواكبها المهيبة إلى تلسم الأسواق الأدبية الرهيبة ، وكيف كان يحفل الندى ، ويعج السامر ، وتهتز المنابر ، وتسيل بالفصاحة الحناجر ، وتشرق روائع البيان بين هذه الربوع والوديان . أجل ، أرجع بالذاكرة إلى تلك العهود القديمة ، ثم أعبى القرون وأنخضى السنين إلى يوم الناس هذا فيصفق القلب نشوة وطرباً ، إذ أرى ذلك المجد الأدبى القديم الذى عفى عليه الإهمال ، وطمرته الرمال ، قد ابتدأ يرجع من جديد ، ويبرز فى الأرجاء بإشراق سعيد .

ولقد سجل الأستاذ عبد الله بغدادى رئيس المسامرات الأدبية نشاط هذه الندوة فى مدى عام واحد فى كتاب أنيق سماه « ندوة المسامرات الأدبية » وقد أخرجه « دار النيل » للطباعة بمصر ، فجاء سفرأ ممتعاً وسجلأ رائعاً ، يحتوى على طائفة من الشعر الشاعر ، والنثر الساحر ، وينطق بمجهود الشباب العربى السعودى فى ميدان الأدب العالى الرفيع . وبهذه المناسبة أشكر لرئيس المسامرات أن أشاد بجهودى المتواضعة ، وأعتقد أنه قد نظر إلى بعين الرضا

حيث عقد فصلاً خاصاً بي ، وجعل عنوانه « مبعوث ثقافى يؤدى رسالته » .
ثم تحدث عن هذا المبعوث الثقافى حديثاً أملت عليه روحه الطيبة وإخلاصه
وحسن تقديره .

وإنه لمن الصعب على أن أثبت فى هذا الكتاب ما ألقيته من كلمات
فى ندوة المسامرات . وذلك أنها كانت كلمات مرتجلة لم تمكث فى الذاكرة
إلا حيناً يسيراً ثم انفلتت طائفة . بيد أن كلمة واحدة من تلك الكلمات
كنت ألقيتها بين يدى حضرة صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله الفيصل
وكيل نائب جلالة الملك بالحجاز ووزير الصحة والداخلية ، وذلك فى حفل
المسامرات الاختتامى لعام ١٣٦٩ هـ ، وقد طلبت منى هذه الكلمة بعد إلقائها
فأثبت ما علق بذهنى منها . ونشرها رئيس المسامرات فى كتابه ، وأعدت
بدورى نشرها فى هذا الكتاب .

ومجلة الحج « الغراء » التى تصدر بمكة هى كذلك مجال علمى وأدبى
كبير ، وموطن إدارتها فى وزارة المالية ندوة أدبية تضم فى كثير من الأوقات
علماء مكة الكتاب ، وكتابها العلماء . ولا غرو أن شخصية مديرها الأستاذ
الكبير محمد سعيد العامودى كان لها أثر واضح فى النهوض بهذه المجلة حتى
لقد خطت فى زمن قصير خطوات واسعة جعلتها تسير جنباً إلى جنب مع
كبريات المجلات الدينية فى مصر .

وقد حُببَ إلى الكتابة فى هذه المجلة ما وجدته فى مديرها الجليل من
حب للعلم والعلماء ، وتقدير كبير لرجال الأزهر الشريف ، وما يتحلى به من
خلق كريم ، ونفس هادئة وصدر رحب وأفق واسع ، وإلمام كبير مع اهتمام
أكبر بشئون العروبة والإسلام . وقد أثبت فى هذا الكتاب كثيراً من

المقالات التي كتبتها في هذه المجلة وأشرت إلى ذلك في ذيول الصفحات .

وهذا الكتاب — كما سيراه القارئ — مجموعة من الخواطر المتنوعة ، وطائفة من بحوث ومقالات متفرقة كتبت في مناسبات مختلفة ، لم أقصد في كتابتها إلى الدراسة العميقة التي تحتم على القارئ أن يتزود بيقظة قوية ويعتصم بنشاط عقلي كبير ، بل راعيت في كثير من الأحيان أن أبسط الكلام وأوضح مرماه ، وأوسع مجراه كي ينحدر في يسر وسهولة إلى الأذهان .

وقد قمت بطبع هذا الكتاب استجابة لرغبة إخواننا السعوديين الذين طلبوا إلى تسجيل هذه الكلمات بعد أن سمعوها في الإذاعة السعودية ، أوفى ندوة المسامرات الأدبية ، أوقروها في مجلة الحج . وكان أول من طلب إلى هذا العمل وحفزني إليه الأخ الكريم الشاعر المطبوع الأستاذ طاهر زخشرى والأخ الكريم المرني الفاضل الأستاذ عبد الله بغدادى ، والأخ الكريم العالم الأديب الأستاذ عبد الله المنيعي ، وإني أشكر لهم الروح الطيبة التي تجلت في مناسبات عديدة ، وأسأل الله لهم حسن المثوبة وأكرم الجزاء .

وبعد فإن النهضة القائمة بالملكة العربية السعودية وعلى الأخص من الناحية الثقافية ترجع إلى مايسود هذه البلاد من الأمن الشامل والاستقرار الكامل الذي سما فوق الآمال ، وصار مضرب الأمثال . . والذي لا أبالغ إذا ما قلت إنه لا يوجد في أية دولة من دول العالم ، وأساس هذا الأمن والاستقرار أنها تحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، فيقتل القاتل وتقطع يد السارق ، وتقام الحدود الشرعية ويُرَاقَب تنفيذها في حزم وصرامة ، ومن ثم انقطعت الفوضى والهمجية ، واتجه الناس إلى واجباتهم ، وتوثقت الروابط وقوى التعاون بين

المملكة السعودية وغيرها من الممالك ، وغدت البعثات التعليمية تنتقل في أرجاء الجزيرة العربية تحت سماء صافية من الفتن والاضطرابات . وفي جو آمن مطمئن لا تسوده الأطماع الجاهلة والشهوات الباطلة ولا تعصف به النزوات الرُّعْن ، بل يسوده الرضى والقناعة والامتثال والطاعة ، ويشرق فيه القرآن الكريم دستوراً يضيء طريق الخير ويهdy للتي هي أقوم .
وإنه لمن الحق على كل دولة مسلمة أن يكون لها في ذلك عبرة وتبصرة فنهج هذا النهج الصالح . وتقتدى بغيرها في حسناتها وتتخذ من مبادئ الدين الحنيف دستوراً يعصمها من الزيغ والضلال ويأخذ بيدها إلى شاطئ الخير والنجاة .

والله نسأل أن يمدنا بعونه ويوفقنا لما يحبه ويرضاه ؟

محمد الطيب النجار

{ ذى الحجة ١٣٧٠ هـ
سبتمبر ١٩٥١ م } القاهرة في

للبيت ربّ بحميه ^(١)

لاهم أن العبد يـ نع رحله فامنع حلالك
وانصر على آل الصلي ب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صـليهم ومحالم أبداً محالك
هم جرّدوا لك جمعهم والفيل كي يسبوا عيالك
إن كنت تاركهم وقب لمتنا فأمر ما بدا لك

بهذا الشعر العاطفي الرائع توجّه عبد المطلب بن هاشم إلى الله مع نفر من قريش ، وقد تعاقبوا بحلقة السكبة وأستارها في ضراعة الخائف الوجل وإنابة العائد المستغيث حينما قاجأهم الجيش الحبشي يقوده أبرهة الأشرم ؛ بيأسه الشديد ، وعدته القوية ، وعدده العديد !!.

وكأنما قد رأى عبد المطلب أن لا قبل له بهذه القوة الهائلة المفاجئة ، فليجأ إلى البيت العتيق يتعلق بأستاره ، ويتضرّع إلى الله في جواره ، ومن ورائه قريش كلها ؛ بل قبائل العرب في مكة وما يحيط بها تبكي كل البكاء ، وتجار إلى الله بالشكوى والدعاء !.

أفهل كان العرب في مثل هذه المحنة القاسية يلجأون إلى الله الواحد القهار ؟ أم يلجأون إلى الآلهة المتعددة من الأصنام ، والأوثان ، والأحجار ؟! . لقد حدثنا التاريخ عنهم أنهم كانوا يفيثون إلى الأصنام والأوثان كلما فاجأتهم النوازل ، أو نزلت بساحتهم الكوارث ، يلتمسون عندها النصر

(١) ألفت هذه الكلمة بالإذاعة السعودية ونشرتها مجلة الحج في رجب سنة ١٣٦٩ هـ

والمعونة ، ويطلبون في ظلالها الخير والبركة ، ويهيمون بها أن تدفع الضرر عنهم ، وأن تباعد بينهم وبين الويلات والأخطار .

نعم لقد حدثنا التاريخ بذلك ولكن ليس معنى هذا أنهم يعتقدون أن الأصنام والأوثان آلهة تضر وتنفع ، وتبصر وتسمع ، وتعطي وتمنع ، وتحيي وتميت ، إنما كانوا يعبدونها على أنها واسطة بينهم وبين الله تقرهم إليه ، وتشفع لهم ، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا المعنى في وضوح وصرامة فقال حكاية عما يقولون . . « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ثم قال في آية أخرى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله » ثم أخبر عنهم أنهم في وقت الشدة والبلاء لا بد أن ينسوا أصنامهم ثم لا يدعون إلا الله فقال « قل أرأيتم إن أتاكم عذابُ الله أو أتكم الساعةُ أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين ، بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتَنسَوْنَ ما تَشْرَكُونَ » .

وكان جيش الحبشة قد أقبل من اليمن التي كانت خاضعة للنفوذ الحبشى في ذلك الأوان ، فأشرف على مكة بعد أن تخطى إليها التلال والنجاد ، والمضاب والوهاد ، وبعد أن اجتاز في سبيله الصخور القاسية والصحراء المترامية ، وبعد أن كاد يضل في شعاب الجزيرة الشائكة ومسالكتها المشتبكة ، واستقر بمكان قريب من مكة يقال له المَعَمَس ، وأرسل القائد الحبشى رسولا من قبله إلى مكة يدعى حناطة الحميرى ، فقال له : سل عن سيد اهل هذا البلاد وشريفها ، ثم قل إن الملك لم يأت لحربكم وإنما جاء لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة له في دمائكم . . فإن هو لم يرد الحرب فأت إلىَّ به . فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قریش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم فجاءه فأخبره بما أمره به أبرهة فقال له عبدالمطلب

والله ما نريد حربه ، ومالنا بذلك منه طاقة ؛ هذا بيت الله الحرام وبيت خليله
 ابراهيم عليه السلام فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وأن يخل بينه وبينه فوالله
 ما غندنا دفع عنه ، فقال حنافة فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني بذلك ، فانطلق
 معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر ووقف بباب أبرهة ، فقبل
 لأبرهة : إن عبد المطلب ببابك ، فقال : من هو عبد المطلب ؟ قيل : إنه سيد
 قريش وصاحب عيش مكة ، وهو الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في
 رؤوس الجبال . فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب وسيا جميلا ، شديد الهيمية
 والوقار ، فلما رآه أبرهة أجلة وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن
 تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على
 بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : سل عن حاجته ، فسأله
 الترجمان ، فقال : حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي : فلما قال له
 ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتي حين رأيته ثم قد زهدت فيك
 حين كلمتي ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك
 قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت
 رباً سيمنعه ويحميه... ! فرد أبرهة قائلاً . ما كان ليمنع مني ، فأجابه عبد المطلب :
 أنت وذاك . فرد أبرهة على عبد المطلب المائتي بعير التي أصابها ، وانطلق
 عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة فخرجوا جميعاً
 يتحززون في شعف الجبال والشعاب وينتظرون ما الله صانع بذلك الظالم
 الطاغية ، ويتساءلون هل سيتحقق للأحباش أملهم ، أم أنهم ستقع عليهم
 الواقعة ، وتصيبهم بما صنعوا قارعة... !!

وأصبح الصباح وتحرك جيش الأحباش مُدلاً بعظمته وكبريائه ؛ تتقدمه
 القيلة بشكلها المهيب الخيف الذي لم تألفه العرب في حروبها ، وكان عددها

ثلاثة عشر فيلا توجهت جميعها في طريقها إلى الكعبة ماعدا كبيرا لهم فإنه ظل جامداً في مكانه ؛ فإذا وجهوه إلى اليمين أسرع وهروا ، وإذا وجهوه إلى الكعبة وقف ولم يتحول...!! وكأن الله قد ألهم ذلك الحيوان الأعجم بما تحببه الحدثان ، وما ينتظر ذلك الجيش من خسف ونكال وهوان ..

وما كان مثل هذا الجيش القوي ليغلب من ضعف أو قلة لولا قدرة القوى القاهر التي تجلت في تلك الآية الكبرى الباقية على الدهر ، إذ أرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجرٌ في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعص لا تصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت ، وذعر الأحباش واستولى عليهم الرعب والذهول فخرجوا هاربين يتبدرون الطريق الذي منه جاؤا ، ويسألون عن الطريق إلى اليمين ، فقال أعرابي رآهم في هذه الحيرة بعد ما أنزل الله عليهم من نعمته .

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب وظلوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أمثلة كلما سقطت أمثلة خرجت وراءها المدة والقيح والدم الكثير حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يقولون...!!

وإلى هذا الحادث العجيب يشير الله تعالى بقوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ »

وأحب أن أذكر بهذه المناسبة أن بعض المفسرين من علماء هذا القرن قد جانب الصواب في تفسيره للطير الأبابيل بأنها الرياح المتجمعة حملت إليهم

ميكروب الجدرى ففتك بهم ، وفي قوله أن الحجارة من السجيل هي ذرات التراب التي حملت الميكروب . وذلك لأنه لم يُعهد في لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل أى جماعات من الطير ، ولا ينبغي أن يقال ذلك إلا بطريق مجازي بعيد ، ولا يصح أن يُلبأ إلى مثل هذا المجاز ما دامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله ولا يقبل أيضاً أن يقال عن ذرات التراب إنها حجارة من سجيل أى من طين مطبوخ (وهو الآجر) .

وإذا كانت الريح قد حملت ميكروب الجدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟ .

وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم ، وبعضهم من أعداء الرسول ، فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية والحجارة حجارةً حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلم ذلك على رؤوس الأشهاد ، ويتبرها فرصة في الكيد لحمد والطعن عليه ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها ولا يجروأحد على إنكارها . !!

وبعد فقد رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت الحرام ، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فأصبح منذ ذلك الوقت هو القبلة الجامعة ، والمئذنة الساطعة ، ولقد مرت حقبة من الزمن على هذا البيت الكريم خفت فيها ذكر الرحمن ، وارتفع صوت الشيطان ، وعُبدت الأصنام

والأوثان ، ولكن ظل البيت العتيق صامداً لتلك الفتنة الجاحمة ، وهذه
الأعاصير الجاثمة ، حتى انجلى ليل الحنة الحالك ، وأشرق على الإنسانية نور
الإسلام الوضاء ، فانكشفت أستار الزيغ والبهتان ، وارتفع ذكر الرحمن ،
وخنس صوت الشيطان ، وعاد البيت من جديد منارة ساطعة تؤنس المستوحش
الحائر وتهدى الضال السادر ، وسيظل إن شاء الله مصدر الخير والنور إلى يوم
القيامة ، فللحق قوة تؤيده ، وللدين إله يرعاه ، وللبيت رب يحميه .

الموازع الدّيني^(١)

حينما تشرق بشاشة الإيمان في القلوب ، وتسرى حلاوته في النفوس مسرى الدم في الجسم ، وتظهر آثار ذلك الإيمان في أعمال الإنسان طاعة وبرّاً ومعروفاً وخيراً ، وخضوعاً لله وإجابة ، وطمأنينة واستجابة ، في هذه الأوقات التي تعطرت بذكر الله وتوحيده ، وتقديسه وتمجيده ، يحاول الشيطان أحياناً أن يتلمس فراغاً يدخل منه إلى عقول الناس كي يصرفهم عما هم فيه من الخير والهداية ، ولكنه لا يلبث أن يسمع صوتاً من الأعماق يدوى في الآفاق ، نذيراً لذلك الشيطان بالتدمير ، والطرْد واللعنة وسوء المصير ، وحينئذ يولى الشيطان الإدبار ، ويرتد خاسئاً وهو حسير . ! !

وحينما يمسّ بعض الناس طائفٌ من الشيطان فيحومون حول الحمى ، وتبدو المعاصي أمامهم لابسَةً ثوب الفتنة القشيب ، متخذةً كل وسائل الإغراء والترغيب ، كي تلقّتهم بين أحضانها ، وتوقعهم في شركها ، في هذه اللحظات الرهيبة قد يحس الإنسان بقوة خفية تصارع قوى الشر الباغية ، وتكبح جماح النفس العاتية ، وتعيدها بالله من ذلك الزيغ والضلال .

وحينما تنخدع النفوس بالشهوات المغرية ، وتنحدر إلى الآثام المردية ، وتقع فريسة للأباطيل والمنكرات ، وتحيط بها ظلمات من المعاصي فوق ظلمات. في تلك الساعات العصيبة ، ووسط هذا الشر المتكاثف ، قد يترأى لدى السارين شعاع ساطع ، يكشف لهم ذلك الطريق الملتوى الخادع ، وينير أمامهم السبيل القاصد القويم .

ذلك الصوت القوى الذى ينذر الشيطان بالتدمير ، وتلك القوة الخفية التى تصارع قوى الشر ، وذلك الشعاع الساطع الذى يكشف طريق الفتنة الخادع . إنما هو الوازع الدينى .

فالوازع الدينى هو نتيجة الإسلام ، وثمره الإيمان ، وهذه الثمرة لا تنضج إلا إذا هيئت لها التربة الصالحة للإنبات ، والغذاء الذى يمدّها بالحياة . وإذا كانت الأرض تختلف معادنها باختلاف الجهات والطبقات فكذلك النفوس تختلف طبائعها باختلاف البيئة والعادات وما يحيط بها من سائر المؤثرات ، وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا الاختلاف فى طبائع الناس فقال « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشرّبوها وسقّوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً . فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

وإنما يتهيأ السبيل لتكوين الوازع الدينى ، إذا ما نشأ الطفل منذ نعومة أظفاره بعيداً عن عناصر الشر والفساد التى تعكر نقاء النفس وتكدر صفاءها ، ثم أحيط بعد ذلك بالبيئة الصالحة والجو الملائم . واكتملت له أسباب العناية والرعاية ، حينئذ ينزل الإيمان على قلبه فيحيمه ، وينبت الوازع الدينى فيه ، ثم لا يزال ذلك النبات ينمو ويتعرعر حتى يكتمل نضوجه ويستوى على سوقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وإذا ما اكتمل نضوج الوازع الدينى لدى إنسان ، فإنه يقف سداً منيعاً أمام الشهوات ، وحصناً حصيناً يقويه شر الزلل والعترات ، وهؤلاء الذين

أكمل الوازع الديني لديهم هم المفلحون الذي تحدث الله عنهم فقال :
 « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو
 معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لقروهم حافظون ، إلا على
 أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » . وهم المتقون الذين قال
 الله عنهم : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم
 مبصرون » . وهم عباد الله الذين قال الله عنهم للشيطان : « إن عبادي ليس لك
 عليهم سلطان » . وهم الأبرار الذين وعدهم الله بالخير والنعيم والرضوان الكبير
 فقال : « إن الأبرار في نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم
 نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس
 المتنافسون » .



وقد يكون الوازع الديني موجوداً لدى بعض الناس ولكن تحيط به بيئة
 فاسدة وجو ملوث موبوء . وحينئذ تقوم حرب عنيفة بين ذلك الوازع الديني ،
 وبين ما يحيط به من شر وفساد ، وينشأ صراع شديد بين الخير الذي تنطوي
 عليه النفس وبين الشر الذي يحيط بها من الخارج ، وربما طال أمد هذا
 الصراع واستعر أواره ، وتفاقت أخطاره ، وحينئذ يتظاهر الوازع الديني
 بالانكسار ، ويتوارى مؤقتاً عن الأنظار ، ولكنه يكن في مكان آخر بعيد
 عن منطقة الشعور ، وقد ينم الوازع الديني في تلك المنطقة نوعاً عميقاً ، ويحاول
 أن يستجم ويستريح ، وينفض ما علق به من غبار تلك الحرب وأوزارها ،
 ولكنه مهما طال نومه لا بد أن يستيقظ ، وحينئذ تكون يقظته قوية رائعة
 تدمر ما صنع الشيطان من عقبات ، وتبني ما هدم من طاعات وأعمال صالحات
 فيرجع الحق إلى نصابه ، ويعود المذنب إلى ربه تائباً خاشعاً ، منيباً خاضعاً ،

فيفتح الله له أبواب رحمته وغفرانه ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ،
« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » ،
« إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات
وكان الله غفوراً رحيماً » .

ومظاهر العبادة والطاعة ليست آيةً على وجود الوازع الدينى ، فالوازع
الدينى معنى من المعانى الكريمة يعلمه الله فى قلوب الناس ، ويُحسُّه الإنسان
فى نفسه دون غيره ، وربما تظاهر إنسان بالإسلام فصلى وصام وأقام شعائر
الدين ، ونفسه تنطوى على شرمكين ، وضعف بل ضلال فى العقيدة واليقين
وهؤلاء هم المنافقون الذين توعدهم الله بالويل والثبور وعذاب السعير حيث
يقول : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » .

فمن الحق إذن على العلماء ورجال الدين أن يوجهوا اهتمامهم نحو تربية
الوازع الدينى فى نفوس الأفراد ، وإن أنسب الأوقات لذلك مرحلة الطفولة
ففيها يكون الإنسان صفحة بيضاء يكتب المربى فيها ما يشاء ، وفيها يكون
الإنسان عجينة لينة إن وجهت لها العناية برزت فى صورة جميلة حسنة . .
وكما قال القائل :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها انخشب

وبعد فإن الرجل راجع فى أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، فليحرص
كلُّ منكم على تكوين الوازع الدينى لدى أهله وعشيرته ، وإن بين أيديكم
— بحمد الله — النور المبين الذى لن تضلوا ما تمسكتم بهداه ، وسرتم على
ضوءه وسناه ، كتاب الله وسنة رسوله .

في غار حراء (١)

حياة التأمل في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله في هذه الدنيا من عجائب وأودع بين جنباتها من أسرار وغرائب ، تلكم هي الحياة الحية التي تصل بالكثير من العقلاء إلى نتيجة حتمية لا غموض فيها ولا التواء ، وتضع أيديهم على حقيقة منطقية لا شك فيها ولا مرأ ، وتجعلهم يهتفون من أعماق قلوبهم (إن الأثر يدل على المؤثر والصنعة تستلزم وجود الصانع ، ولا بد لهذا الوجود من خالق معبود واجب الوجود) .

وقد لجأ العقلاء من الناس إلى التأمل والتفكير حينما اصطدموا بالأباطيل والخرافات التي كانت سائدة في عصورهم فأحسوا أن هناك سرًّا قوياً يمكن وراء هذه الكائنات بما تنطوي عليه من نظام سليم وتنسيق حكيم . وهذا السر القوي هو الذي يحرك العالم ويدير دفته ويملك زمامه ويسيره على هذا الوضع الدقيق (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) ، وهذا السر القوي هو الذي يراه الإنسان في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى ، وفي الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ، وفي الرياح العاصفة والريعود القاصفه . وفي النسيم إذا سرى والماء إذا جرى ، وفي النبت إذا ترعرع والثمر إذا أئنع ، وفي الإبل وكيف خلقت ، والسماء وكيف رفعت ، والجبال وكيف نصبت ، والأرض وكيف سطحت ، وفي الحى يخرج من الميت والميت يخرج من الحى ، وفي الماء المهيّن يستقر في ظلمة الرحم إلى أمد معلوم ثم يصير إلى بشر سوى .

ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من أولئك النفر القلائل الذين فروا من ضلال العقيدة وأفن الرأي ، وضعف الحجة وظلام المحجة ، إلى حيث يلمس الحقيقة ، ويستضيء بنور اليقين والاطمئنان . وقد لجأ إلى العبادة عن طريق التأمل والتفكير حينما وضع له أن مكة قد أحاطت بها ظلمات الشرك والضلال ، وغرقت إلى الأذقان في عبادة الأوثان والأصنام ، وأن البيت العتيق الذى هو موضع الطهر والقداسة لدى العرب أجمعين ، لا ينبغي أن تهفوله قلوب العقلاء مادام محاطاً بهذه الأحجار التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر ، وما دام السفهاء من الناس يلمسون الخير والبركة فى ظل تلك الأحجار ويعتقدون أنها تشفع لدى الله فتيسر على الفقير ، وتهب الصحة للضرير ، وتفك العانى الأسير ، ويرونها الملاذ الآمن فيلجأون إليها فى الشدائد والكروب ، ويستنصرون بها إذا حاقت بهم الخطوب .

أجل كان محمد صلوات الله وسلامه عليه — وهو الذى صنعه الله على عينه ، ووهبه رجحان العقل . وسداد رأى ونفاذ البصيرة — ينظر إلى الملامن قریش فيعجب كل العجب حينما يراهم — وفيهم أفذاذ الرجال الذين صقلتهم التجارب والحوادث وعلمتهم الحياة كيف تكون الفراسة الصادقة والنظر البعيد — ولكنهم على الرغم من ذلك كله يعكفون على أصنام لهم ، ولئن سألتهم لم تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ؟ فإنهم يتشبثون بمنطق زائف كليل . وحجة داحضة عمياء ، ويقولون : وجدنا آباءنا لها عابدين .

وكان من الطبيعى أن يضيق محمد بهذا الجو الخناق وينفر من هذه البيئة الفاسدة ويلمس له من هذا الضيق فرجا ومخرجا .. وإذن فإلى أين المصير ؟ وكيف يكون المخرج من هذا الفساد المستحكم والشر المستطير ؟

على بعد ساعة واحدة من مكة المكرمة بالسير على الأقدام ، وعلى يسار
الذهاب إلى منى ، تمتد سلسلة من الجبال المتلاصقة والآكام المشتبكة المتلاحقة
وفي وسط هذه الجبال والآكام جبل أوحديلوح كأنه القرقد ، ويطل على تلك
القيافي الشاسعة والجبال الفارعة كأنه المنارة الساطعة ، ويمتد بقمته العالية في
الفضاء حتى ليكاد يطاول السماء ويناطح الجوزاء ، ذلكم هو الجبل الأشم
الخالد على الزمن جبل حراء .

وقد تطلع محمد قبيل البعثة النبوية إلى هذه القمة العالية حينما رأى قریشاً
قد هوت إلى الحضيض واحدرت في عبادتها إلى الدرك الأسفل ، فسماهو إلى
هذا المكان ، وكان يخلو به كل عام في شهر رمضان . أجل كان يخلو بغار
في أعلى هذا الجبل الأشم ، وهو كهف غريب جعله الله على وضع عجيب يأخذ
فيه الإنسان راحته الكاملة ، وتنطلق فيه الروح من أسرار الماديات وعقال
الشهوات إلى حيث تسمو إلى العلياء وتسبح في ملكوت الأرض والسماء ،
فبإبه يتسع لدخول الشخص الواحد وهو قائم ، وقد غطى سقفه بصخور مائلة
ولذا كان وسطه أعلى من جانبيه ويستطيع اثنان متجاوران أن يصليا فيه براحة
تامة ، ومساحته من الداخل تسمح بنوم ثلاثة من الرجال متجاورين .

وقد أسعدني الحظ بالرقى إلى هذا الغار في رفقة من الأصدقاء الأخيار وكلهم
من الشباب الممتليء بالقوة والفتوة فكثنا في الصعود إليه ساعة كاملة استرحنا
خلالها مرتين قصيرتين . ولولا دافع قوى من الإيمان ، وشوق أقوى لرؤية أول
مكان نزل فيه القرآن ، لتحطمت قوتنا أمام الصخور القاسية . وتضاءلت بين
يدى تلکم الأحجار العاتية ، ولما استطاع أحد منا أن يواصل السير والصعود
على هذا المرتقى الوعر الشديد .

ولسكن عند الصباح يحمد القوم السرى ، وحينما تتحقق الآمال تضيع
 المتاعب ، وتنسى الآلام والمصاعب ، ولقد نسينا ما لقينا من نصب ومشقة
 حينما اتهمنا بحمد الله وتوفيقه إلى الغار ، وأشرقت علينا من خلاله الأنوار ،
 وغمرتنا موجات متلاحقة من البشر والسرور . وطاف بنا أشراق من صفاء
 النفس وسمو الروح حتى لقد ذهلنا عن أنفسنا وخيل إلينا أن الأجسام والأشباح
 قد استبدلت بأطياف وأرواح . وأن أجسادنا لم يعد لها ثقل مادي . وأن في
 استطاعتنا أن نُحَكِّق في يسر وسهولة إلى العالم العلوى ، ولقد تراءى بين أيدينا
 — إذ ذاك — سجل الزمن وكتاب الأيام فقلبنا صفحاته إلى الوراء أربعة عشر
 قرناً من الزمان إلا قليلاً حيث وقفنا عند صفحة خالدة قشع بالأنوار في تاريخ
 هذا الغار .

ولعل الشاعر الحجازى الأستاذ السيد احمد العربى قد عبر عما تجيش به
 نفوسنا جميعاً فى قصيدته الرائعة عن غار حراء ، وهى القصيدة التى يقول فيها :

هَذَا حَرَاءُ سَأَلُوهُ يُجِيبُكُمْ	فَلَعَلَّه سَفَرُ مِنَ الْأَسْفَارِ
وَأَسْتَلْهُمُوهُ مَوَاقِفَ الْوَحَى الَّتِي	شَعَّ الْمُهْدَى مِنْهَا عَلَى الْأَقْطَارِ
وَسَلُوهُ مَاذَا قَدْ أَقْلَ مِنَ الْبَطْوِ	لَهُ وَالْحَجَى أَعْظَمُ بِهِ مِنَ الْغَارِ
أَخْلَقَ بَغَارِ حَرَاءٍ أَنْ يَرْهَى عَلَى	أَهْرَامِ وَالْإِيْوَانِ وَالْآثَارِ
كَمْ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ بَنَاتِهَا	مَنْ فَارَقَ أَرْبَى عَلَى الْأَقْدَارِ
شَتَانِ بَيْنَ مُحَرَّرِ الْأَقْوَامِ وَالْ	مُسْتَعْبِدِينَ سِلَاطِلِ الْأَحْرَارِ

إلى هذا المكان الذى يشق العنان كان يصعد محمد بن عبد الله قبيل بلوغه
 الأربعين . وكان يحمل معه من الماء والطعام ما يكفيه لقضاء شهر رمضان من
 كل عام ، وبين تلك الصخور والرجام ، وفى هذا الصمت العميق ومن خلال

تلك الكرة الضيقة ، كان يطل محمد على الدنيا بأسرها فيطالع عظمة الكون ونظامه ودقته وإحكامه ، ثم ينظر مع ذلك إلى أهل مكة وما حولها فيراهم في الغنى سادرين ، وللاصنام والأوثان ساجدين ، فيستولى على نفسه الضيق والألم ويتمنى أن لو جاء الحق الصادق الذي تسكن له النفوس وتطمئن به القلوب ، وتنجاب أمامه الغياهب والظلمات .

وحينما أراد الله أن يعلى كلمته ويتم على العالمين نعمته ، أذن للحق بالظهور لكي يخرج الناس من الظلمات إلى النور فجاء جبريل الأمين إلى محمد الأمين ، وقد بلغ أشده وبلغ الأربعين ، ودخل عليه الغار فضمه إليه ضمة شديدة حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له اقرأ . فأجابه الرسول : ما أنا بقارئ ؟ وكرر جبريل هذا العمل والقول ثلاث مرات والرسول يحيمه بنفس الجواب فقال له جبريل : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

وبعد فقد ابتدأت دعوة الحق نوراً أضاء في غارتقاس مساحته بالأشبار ، ولكن لم يلبث هذا النور إلا قليلا حتى ملأ الأقطار والأمصار ، وتلكم عناية الله وذلك فضل الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

(١) مثل رائحة من الإيمان

يعنى القاريخ الإسلامى كثيراً من الذكريات الجيدة ، ويضم كتابه العظيم صفحات مشرقة بالبطولة ، عطرة بالفداء والتضحية ، مزدهرة بالإيمان والوفاء ، وإنه ليطيب للنفس أن تتمثل أشباح هذه الذكريات ، وأن تستخرج من أطواء القرون تلكم الأحداث الخالدات ، وأن تتلمس فى ذلك مواطن العبرة والعظة ، ولا غرو فمن العقل أن يتأسى الإنسان بغيره ، ويضم إلى تجاربه تجارب الماضين ، حتى يكون له من وراء ذلك عدة قوية يقاوم بها الشدائد ، ونور وضاء يؤنسه ويهديه فى ظلمات الحيرة ، ويأخذ بيده إلى الحق وإلى الطريق المستقيم .

وسنقف اليوم عند صفحة خالدة كتبها نفر من المسلمين الأولين الذين تزودوا بحجر الزاد ، وجاهدوا فى الله حق الجهاد ، حتى لقد أثنى الله عز وجل على جهادهم الكريم فقال فى محكم كتابه : (ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد) .

أولئك هم أبطال الجميع ، وهم مرثدين أبى مرثد الغنوى ، وخالد بن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت وعبد الله بن طارق ، وزيد بن الدثينة ، وخبيب بن عدى ، ستة نفر كرام من أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، لهم فى تاريخ الإسلام بلاء أى بلاء ، وفى ميدان التضحية والاستشهاد صفحة ناصعة بيضاء ؛ وذلك أن قوما ينتسبون إلى بنى الهون بن خزيمة بن مدركة وكانوا يسكنون بالحجاز بين مكة والطائف جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

سنة ثلاث من الهجرة ، فقالوا يا رسول الله ، إن فينا إسلاما فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئونا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام ، وقد استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم لأنه لم يكن يعلم الغيب ، ولم يطلعه الله على ما تنطوى عليهم قلوبهم من غدر وخيانة وكفر وضلال ، وقد كان الرسول شديداً حرص على نشر الإسلام وإعلاء كلمته ، وظن أن هذا الوفد قد جاء يلتمس النور وينتقى الخير فلم يرض عنهم بذلك — وما هو في الخير بضنين — وبعث معهم هؤلاء النفر الستة . وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوى .

وخرج القوم من المدينة يضربون في البداء المترامية ، وهم مؤتلفون في الظاهر ولكنهم في حقيقة الأمر فئتان ، فئة مؤمنة وأخرى كافرة ، حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز تحرك الغدر الكامن في نفوس الكفار المنافقين فاستصرخوا عليهم هُدًى يلاً ، ولم يرع المسلمين الستة وهم في رحلهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوه فآخذ المسلمون أسياهم ليقاتلوا ، ولكن هذيلاً قالت لهم أنا والله ما نريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ؛ وحينئذ نظر المسلمون بعضهم إلى بعض وأدركوا ما يبيت أولئك الكفار لهم من الشر وفهموا ما ينطوى عليه هذا القول من الخديعة والمكر ، وما يذخرهم من الولايات والأخطار . . فذاهم بإزاء ذلك فاعلون ؟ . .

يا لله لروعة الحق وعظمة الإيمان . ! ! إن النفس المؤمنة المطمئنة لتعرف جيداً قول الله تعالى (وما كانَ لنفسٍ أنْ تموتَ إلَّا بإذنِ اللهِ كتاباً مؤجلاً) وقوله سبحانه فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن

يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً (وأن النفس المؤمنة المطمئنة لتمثل دائماً بما ينطوى عليه قول القائل :

الحرُّ لا يموت إلا مره والموت أحلى من حياة مره
وهي لذلك لا تنهنا بالحياة إلا في ظل العزة الإسلامية ؛ وترى الحياة بدونها موتاً وهلاكاً بل أقل من الموت والهلاك . .

ولقد أشرقت بشاشة الإيمان في نفوس أولئك الأبطال فحملوا سيوفهم وقاموا للقتال ، وقالوا لا نقبل من مشرك عقداً ولا عهداً أبداً ، وأخذ عاصم ابن ثابت يرفع عقيرته ويقول :

ما علتي وأنا جلد نابل الموت حق والحياة باطل
وكل ما شاء الإله نازل بالمرء والمرء إليه آيل
إلى أن يقول . .

إن لم أقاتلكم فأحقى هابل

ثم قاتلوا القوم حتى قتل عاصم وقتل صاحبه مرثد بن أبي مرثد وخالد ابن البكير ، وصعدت أرواح الشهداء الثلاثة إلى بارئها تهتف بالعزة الإسلامية وترتل في مسمع الأيام نشيد الإيمان والإسلام

واستسلم الثلاثة الباقون ، وما كان استسلامهم عن خور في العزيمة أو ضعف في العقيدة أو خوف من الموت ؛ ولكنه استسلام الليث المصور وقع في قبضة الغالب ، وأطبقت عليه القوة الطاغية من كل جانب .

وغل هؤلاء الثلاثة الأبرار بقيد الأسار وسارت بهم هذيل إلى مكة لبيعهم فيها . فلما كانوا في بعض الطريق انتزع عبد الله بن طارق أحد المسلمين الثلاثة يده من غل الأسر ثم أخذ سيفه ؛ فاستأخر عنه القوم وأخذوا

يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه ، ورأى أخواه الباقين زيد بن الدثنة وخبيب
ابن عدى عظمة استشهاد أخيهما فتمنيا لو ينتزعان القيود ويحطان الأغلال
لكى يلحقا به إلى هذا المصير والمآل .
يقول ابن هشام « فقدموا بهما إلى مكة فباعوهما من قريش بأسيرين
من هذيل كانا بمكة » .

« فأما زيد بن الدثنة فابتنعه صفوان بن أمية ليقبله بأبيه أمية بن خلف
وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم وأخرجوه
من الحرم ليقتلوه واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له
أبو سفيان حين قدم ليقبل ، أنشدك الله يازيد أتحب أن محمداً عندنا الآن
في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ قال والله ما أحب أن محمداً الآن
في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلى . فقال أبو سفيان
وقد تملكه العجب ، ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدًا .. !!
ثم قُتل زيد فذهب شهيد وفائه وإخلاصه وحبه لله ورسوله .

فأى عظمة نفسية تنطوى عليها تلك النفس المؤمنة التى تستقبل الموت
في سبيل الله بابتسامة الرضى والطأنينة ، والتى لو خيرت لاختارت القتل على
ألا يصاب الرسول صلوات الله عليه بشوكة تؤذيه ؟ إنها التربية الإسلامية التى
أسست على قوله تعالى « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ
إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » .. وقوله
صلى الله عليه وسلم « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ وَأَهْلِهِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

وأما خبيب بن عدي فابتاعه حجير بن أبي إهاب لعقبة بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه ، فحبسه حيناً حتى انقضت الأشهر الحرم . ثم خرجوا به للتنعيم ليصلبوه ، وفيما يروى عنه أنه قال حيناً بلغه أن القوم قد أجمعوا الصلبه .

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل جمع وكلهم مبدى العداوة جاهد على لأنى فى وثاقٍ بمَضِيع وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذع طويل ممنع إلى الله أشكو غربتي ثم كرتي وقد خيروني الكفر والموت دونه ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى ولست بمبدى للعدو تخشعاً ولا جزعاً إني إلى مرجعى^(١)

وحينما جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا . . قالوا دونك فاركع . فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . . ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا . ثم قال اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدءاً ؛ ولا تغادر منهم أحداً .

وكانت هذه آخر كلمات فاضت بعدها روحه تسجل الخزي واللعنة على هؤلاء الطغاة الظالمين . . أجل كانت آخر كلمات تلفظ بها خبيب فكانت صرخة الحق فى وجه الباطل ؛ بل كانت دعوة المظلوم صعدت إلى الله لم يصدها

(١) ذكرت بعض المراجع أن هذه الأبيات ليست من شعر خبيب ، ولكنها قبلت تصويراً لحاله . ومهما يكن من شئ فإنها تصوير صادق لما تنطوى عليه نفس خبيب من شجاعة وإيمان .

حجاب . . وما هو إلا الزمن اليسير حتى صدق الله وعده ، ونصر عبده ،
وأعز جنده ، واندك صرح الظلم والطغيان ، وأشرقت مباءة الأصنام والأوثان
بنور الحق والإيمان .

أما بعد فهذه مثل رائعة من الإيمان الكامل تتألق في تاريخ الإنسانية كما
تتألق النجوم الهادية ولا غرو فهي تشع بالإيمان والتضحية ، ويتجلى فيها مدى
حب المسلمين الأولين لدينهم ونبيلهم ؛ حتى لقد جادوا في هذا السبيل
بأرواحهم ؛ والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

ونحن الآن في عصر قست فيه القلوب ، وغشيتها ظلمات الأثرة والأنانية ،
فمن الحق علينا — نحن المسلمين — أن نسير على نهج أسلافنا الأبرار ، فإن
لم نستطع أن نساويهم فليس أقل من أن نبذل ما في وسعنا لكي نتدرج شيئاً
فشيئاً إلى التضحية والفداء ومن سار على الدرب وصل . ويومئذ يعود للإسلام
مجدد التليد ، ويتلأأ سعده من جديد ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله
ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

(١) عاقبة الظلم وجزاء الإحسان

تسير القافلة البشرية في طريقها الطويل إلى غايتها المحتومة ؛ ويتتبع التاريخ تلك الخطوات المتعاقبة المتلاحقة فيسجلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ويتركها للأجيال والقرون تقرأ فيها المقدمة والنتيجة ؛ والسبب والغاية « البداية والنهاية » كي تتلمس من وراء ذلك كله موطن العظة والعبرة ، فتقيس الحاضر بالغابر والطريف بالتليد ، وتبنى على هذا الأساس ما ترجوه في الحياة من غاية كريمة وهدف مجيد ..

.. وكلما تأمل الباحث فيما يحويه صدر الزمن من الحوادث والأنباء .. ازداد يقيناً على يقين واطمئناناً إلى اطمئنان بأن سنة الله في خلقه تجري على نظام لا سبيل إلى تغييره وتبديله وتسير على منهج مرسوم يشرق مع الشمس ويزغ كذلك مع القمر والنجوم ، وفي ظل هذا المنهج الذي لا يتخلف يستطيع العاقل من الناس أن يتبين موضعه في الحياة ، ويوجه نفسه إلى شاطئ الخير والنجاة ..

وقد جرت سنة الله في خلقه — وهو أعدل الحاكمين — بأن يجعل جزاء الإحسان إحساناً ، وعاقبة الظلم وبالا وخسراناً ، فقد قال تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) وقال (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) وثبت في الصحيحين عن أبي موسى رضي الله

عنه قال : قال رسول الله صلى الله وسلم « إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته » .

.. والتاريخ الإسلامى يفيض بالمثل الرائعة والأحداث المتنوعة التى ترينا صوراً صادقة عن عاقبة الظلم والطغيان ، وجزاء البر والإحسان ، وشتان بين الطريقين وما بعد الفرق بين العاقبتين ، ولكننا — رعاية للمقام — سنكتفى من هذه الصور العديدة بالقليل ، سائلين الله أن يجعل فيه النفع ويهدى به سواء السبيل ..

ألا فلنقف عند هذه الصفحة من سجل الأيام لننظر ماذا نرى ؟

هذا هو النضر ابن الحارث القرشى من بنى عبد الدار بن قصى ، يتتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فى مجالسه بمكة مع الملائكة من قریش ، ويتحداه تحدى الأحق المقتون حتى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان إذا جلس مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذر قریشاً ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه النضر فى مجلسه إذا قام ، ثم حدث قریشاً وذکر لهم العجائب والغرائب عن رستم الفارسى واسفنديار رسائر ملوك الفرس ، ثم يقول « والله ما محمد بأحسن حديثاً منى وما أحاديثه إلا أساطير الأولين » . وهو الذى أنزل الله فى شأنه هو ومن يؤيد دعواه الكاذبة (وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهى تُملئ عليه بُكرةً وأصيلاً قل أنزلهُ الذى يعلم السِّر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً) وفيه نزل قول الله تعالى (ويلٌ لكل أفاكٍ أثيمٌ ، يسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يُصِر مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم)

وهذا هو عقبة بن أبي معيط . وقد كان الجار الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وكان ذلك في مكة بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بزمان قليل ، ودعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله عليه السلام « والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله » فنطق عقبة بالشهادة فبايع ذلك أبي بن خلف الجمحي القرشي فقال : ما شيء بلغني عنك ؟ قال لا شيء . دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له . قال أبي : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبرق في وجهه وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزله الله فيه في سورة الفرقان (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا » وذكر البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي في حجر الكعبة فأقبل عقبة بن أبي معيط ووضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال « انتقلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » . .

ثم لنغمض الطرف عن المضي في قراءة تلك الصفحة المظلمة الشوهاء ، المليئة بالظلم والطغيان ، والإثم والعدوان ، ولننتقل إلى الصفحة التي تليها من هذا السجل الحافل بالأبناء الجسام ، فماذا نرى ؟

.. هؤلاء هم بنو هاشم وبنو المطلب ، مساهم وكافرهم جميعا عدا أبي لهب يققون صفا مع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ويضحون من أجله براحتهم وسعادتهم ، حتى لقد كتبت قريش صحيفة تعلن فيها مقاطعتهم ،

خلا تبيعهم ولا تتباع منهم ولا تتعاون معهم ، ثم علقت هذه الصحيفة في جوف الكعبة ، ونفذت هذه المقاطعة الخيفة فلجأ بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة يعانون الحرمان ألوانا ، حتى لقد بلغ من سوء حالهم أن أكلوا ورق الأشجار ، وعلى الرغم من عض الزمان وكرب الأيام فإنهم كانوا يزدادون حرصا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتضحية من أجله ، وفي ذلك يقول قائلهم .

فلسنا ورب البيت نسلم أحدا لعزاء من عض الزمان ولا كرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشكى ما قدينوب من النكب
ولكننا أهل الحفاظ والنهى إذا طار أرواح الحكمة من الرعب

.. وقد استمرت هذه المقاطعة المروعة ثلاث سنوات متتابة ، ثم أذن الله لهذا الليل الطويل بالانتهاء فقام خمسة من كرام الرجال هم : هشام ابن عمرو ، وزهير بن أمية ، والمطعم بن عدي ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود فشقوا صحيفة المقاطعة وأعلنوا نقضها ، وحينئذ خرج بنو هاشم وبنو المطلب من هذا السجن الضيق المميت إلى معتك الحياة ، ضاربين في الإخلاص لمحمد صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثال ، محتملين من التضحية ما ينوء بالجال .

وهكذا يشرق التاريخ بمثل هذا البر والإحسان من بنى هاشم وبنى المطلب ، ومن أولئك الأبطال الذين نبذوا تلك المقاطعة الآثمة الظالمة . وهيهات أن تقارن تلك الصفحة الشوهاء المظلمة التي رأيناها من قبل تقيض بالظلم والطغيان ؛ بمثل هذه الصفحة المشرقة التي تقيض بالتضحية والإخلاص والبر والإحسان : (لا يستوى الخبيث والطيب) (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) .

.. ولا غرو أن هذه مقدمات سوف تتبعها نتائج ؛ وبداية لا بد لها
من نهاية وزرع سيأتي يوم حصاده ، والله عز وجل يقول (فمن يعمل مثقال
ذرة خيراً يره) في الدنيا والآخرة (ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) في الدنيا
والآخرة .. والحكمة العربية الخالدة تقول :

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الزرع إبان
وتقول :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس ..
.. ولقد دارت الأيام دورتها ووقف الفريقان من أحسن ومن أساء ..
أمام عدل القضاء في غروة بدر في السنة الثانية من الهجرة .. ومن عجب
أن الفريقين قد اشتركا في غزو محمد صلى الله عليه وسلم ومحاربة المسلمين ..
ولكن إذا كانت السيئة لا تنسى فإن الحسنة أيضاً لا تضع ، مهما امتد
الزمن وطال الأمد ؛ وها هو ذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يرضى
الجميل لمن أحسن إليه وقت الشدة ، فيأمر أصحابه بالآ يقتلوا أحداً من أولئكم
الذين أحسنوا إليه من بني هاشم ، أو ممن عاون في نقض صحيفة المقاطعة
الظالمة .. ثم يؤكد التوصية على عمه العباس بن عبد المطلب فيقول (ومن
لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها)
ويشاء الله عز وجل أن يكتب النصر للمسلمين ؛ وأن يقتل أئمة الكفر
والضلال ممن وقفوا حجر عثرة في سبيل الإسلام ، فأما هؤلاء الذين أوصى
بهم الرسول خيراً فقد رجعوا إلى مكة — إلا ما شاء الله — ثم شرح الله
صدورهم بعد ذلك للإسلام فاعتز بهم دين الله وأشرق عليهم مغفرته ورضوانه
وهكذا يكون جزاء البر والإحسان ..

أما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وهما اللذان ذكرنا طرفا من عداوتهما للإسلام وإيذائهما للرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنهما أخذوا في هذه الغزوة أسيرين ، ثم قتلا في الطريق إلى المدينة ، وكأما شاء الله ألا يقتلا أثناء المعركة ليطول أمد ذلتهما وليدركا عاقبة غيِّهما ، وليزداد فرح المسلمين بالانتقام منهما ، وليريا رأى العين كيف ينصر الله من ينصره ، والله قوى عزيز . .

. . قتل النضر حين عرض الأسرى على النبي صلى الله عليه وسلم عند بلوغهم الأثيل ، فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعدت لها فرائصه وقال لرجلٍ إلى جنبه : محمد والله قاتلي ، لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت ، قال الذي إلى جنبه : ما هذا والله منك إلا رعب ، وقال النضر لمصعب بن عمير وكان أقرب مَنْ هناك به رحما : كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه فهو والله قاتلي إن لم تفعل . فكان جواب مصعب ، إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا وكنت تعذب أصحابه ؛ قال النضر : لو أسرتك قریش ما قتلتك أبداً وأنا حي ، قال مصعب : والله إنى لا أراك صادقا ، ثم أنى لست مثلك فقد قطع الإسلام اليهود ، وكان النضر أسير المقداد وكان يطمع أن ينال في افتداء أهله آياه مالا كثيرا ، فلما رأى الحديث حول قتله صاح : النضر أسيرى قال النبي عليه السلام : اضرب عنقه ، واللهم أغن المقدام من فضلك ، فقتله على بن أبي طالب ضربا بالسيف . . .

ثم أمر النبي صلوات الله وسلامه عليه بقتل عقبة بن أبي معيط حينما كانوا من طريقهم بعرق الظبية ، ولما علم عقبة بذلك صاح وقد أخذ منه المربع والفرع كل مأخذ : فمن للصبية يا محمد ؟ قال : النار . وقتله على بن

أبي طالب أيضا ؛ وقيل عاصم بن ثابت ، وهكذا ذهب الخصمان الفاجران
صر يعي بغيرهما وذلك جزاء الظالمين . .

و بعد فإن المصير الذى انتهى إليه النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط
هو مصير كل ظالم مهما أُرْخِيَ له العنان ، وامتد به الزمان ، وإن النهاية التى
ظفر بها العباس بن عبد المطلب وغيره من بنى هاشم على الرغم من اشتراكهم
مع قريش فى غزوة بدر ، هى النهاية التى يظفر مثلها دائما كل مخلص محسن
مهما اصطلحت عليه الخطوب وأحاطت به الأخطار ، فمن الحق علينا الآن
أن نوازن بين حالتين ، ونقارن بين صفحتين ؛ إحداهما محسنة والأخرى
ظالمة ، وإن شئت فقل إحداها مشرقة والأخرى مظلمة ، وأن نلتمس العبرة
فى ضوء هذه المقارنة فكبح جماح النفس عن الظلم والطغيان ، ونهيب بها
إلى البر والإحسان (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون
وسترّدون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

(١) الأسراء والمعراج

تلتصق في أفق الدنيا ذكريات مجيدة من تاريخ الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فتبتدح حلك الضلال والغواية ، وتضيء للسَّارين طريق الهداية ، وترشد الخائرين إذا ما اضطرب الأمر وأظلم السبيل ، واختفى القطب وحر الدليل .

وكما طافت هذه الذكريات المضيئة بالنفوس المؤمنة زادت بها إيماناً ، وغمرت بها يقيناً واطمئناناً ، وأهابت بها أن تلتصق العبرة والموعظة الحسنة ، وأن تجعل من هذا الماضي السني الباهر مقياساً يفيدها في الحاضر ، ونبراساً تسير على ضوئه إلى أهدافها العالية ، وآمالها الغالية .

وقصة الإسراء والمعراج التي نتحدث عنها الآن ، إن هي إلا قبس من تلكم الذكريات المجيدة ، وآية خالدة أكرم الله بها الرسول صلى الله عليه وسلم في وقت عصيب وجو رهيب ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

أجل ، لقد كان الإسراء والمعراج رحلة مباركة في ملكوت السموات والأرض ، رأى فيها الرسول ما رأى من آيات ربه الكبرى ، وأشرقت عليه من لدن المولى الكريم رحمت وبركات ، وتحيات طيبات .

وكانما شاء الله سبحانه أن يُكرم رسوله بهذه المنحة القدسية ، ويُكرِّمه بتكلم النفحة العلوية ، ليكون له في ذلك عوضٌ أيُّ عوض عما لحقه من

أذى المشركين وعنتهم ، وما أصابه من آلام ومتاعب في طريقه الشاقة إلى غايته الحاقة : « ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما » .

لقد كان الإسراء والمعراج بعد البعثة النبوية وقبل الهجرة بعام واحد ، وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب كما هو المشهور ، ولقد ثبت الإسراء بصريح القرآن الكريم ، وذلك قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لترىه من آياتنا إنه هو السميع البصير » : وثبت الإسراء والمعراج معاً بالأحاديث النبوية الصحيحة التى لا يتطرق إليها الضعف والوهن ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتيت بالبُراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه . قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فأخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة ، ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقبل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه ، ففتح لنا فإذا بآدم فرحّب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقبل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال قد بُعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابن الخلة يحيى وعيسى ابن مريم فرحبا بى ودعوا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ففتح لنا وإذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أعطى شطر الحُسن فرحّب ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فذكر مثله فإذا أنا بإدريس

فرحب بي ودعا لي بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فذكر مثله فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله فإذا أنا بإبراهيم مُسْنِداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال . فلما غشيها من أمر ربي ماغشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يفتحها من حسننها ، فأوحى الله إلى ما أوحى ، ففرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة ، قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم ، قال فرجعت إلى ربي وقلت له : ياربني خفف عن أمتي ، فخط عني خمساً ، فرجعت إلى موسى فقلت خط عني خمساً قال إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فسله التخفيف ، قال فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه يا محمد . إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشرة ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تسكتب له شيئاً ، ومن همّ بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة ، قال : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فسله التخفيف ، فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه .

هذه قصة الإسراء والمعراج كما ذكرها لنا رسولنا الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه ، وهي كما ترون رحلة حقيقية بالجسد والروح معاً ، ولم تكن

رؤيا في منام ، ولا حلاماً من الأحلام كما وهم الواهمون .. ولو كان الإسراء والمعراج بالروح فحسب لما كذبه المشركون من قریش وسائر العرب ، ولما عجبوا له هذا العجب وقابلوه بالإنكار والجحود والسخرية والازدراء .. بل لما ذكره الله سبحانه وتعالى في مقام التكريم والامتنان على رسوله حيث يقول : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ »

وقد حاول بعض العلماء المحدثين أن يستدل على إمكان الإسراء والمعراج . أو يقرب إمكان وقوعه إلى الأذهان ، بما وصل إليه العلم من مخترعات حديثة تطوى المسافات الشاسعة في زمن قليل كالطائرات النفاثة وغيرها ، ولكننا لا نذهب مثل هذا المذهب ، فإن هذه المخترعات الحديثة — مهما بلغت من عظمة — لها مقومات من الأسباب والمسببات . وكل شيء يقوم وجوده على سبب معروف فهو أمر عادي لا غرابة فيه ، والمعجزات التي اختص الله بها الرسل والأنبياء إنما هي أمور خارقة للعادة تدعو إلى العجب ولا تخضع فيما نعلم لسبب ، وإذا ساغ لنا أن نتوسع في تفسير معنى المعجزة فإننا نقول إن معجزة الإسراء والمعراج كانت ولا تزال معجزة القرون والأجيال ، ومهما جد في السكون من عجائب المخترعات ، فهيهات ثم هيهات أن تدنو من تلك المعجزات الخالدات . وما دمنّا نحن المسلمين نؤمن بأن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يحيى الموتى بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ، ونؤمن بأن الله سخر لسليمان الريح تحمله وتجري بأمره غدوها شهر ورواحها شهر ، ونؤمن بغير ذلك من المعجزات لجميع المرسلين .

فلماذا يصعب علينا أن نؤمن بأن الإسراء والمعراج آية خالدة كرم الله بها خاتم الرسل والأنبياء؟ اللهم قد آمنا بك وبرسولك محمد صلى الله عليه وسلم . وآمنا بأن الإسراء والمعراج بالروح والجسد ، ولن يتزحزح عن نفوسنا هذا الإيمان إن شاء الله ما دامت الروح في الجسد .

ولقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تلکم الرحلة المباركة في نفس الليلة إلى مكة المكرمة تحف به السكينة ويغمره الرضى والطمانينة ، فلما أصبح الصباح وأخبر الناس بحادث الإسراء ، أيقن الكثير منهم أن هذا كذب وافتراء ، أوجنون وهذيان ، بل لقد ارتد عن الإسلام قوم لما يدخل الإيمان في قلوبهم وقالوا : هذا والله الأمر البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أيذهب محمد ذلك في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة . ؟ ولقد طلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس ولم يكن رآه قبل هذه الليلة ، فأخذته الحيرة والألم فجلاه الله له فصار يصفه وصفاً شاملاً لا شك فيه ، وسألوه عن آية أخرى على صدق كلامه فأخبرهم عن عيرٍ مر عليها في طريقه ، وذكر لهم من الأمارات والعلامات ما لا سبيل إلى الطعن فيه ، ولكنهم على الرغم من ذلك كله لم يزدادوا إلا كفرةً وعناداً ، ولم يزد الرسول بإزاء ذلك العناد منهم إلا صبراً وجهاداً .

ولقد سعى أناس إلى أبي بكر رضى الله عنه بهذا النبأ العجيب وحسبوا أنهم سيفتنونه ، فلم يزد الصديق الكريم إلا إيماناً بالرسول وتصديقاً ، حتى لقد سمي منذ ذلك اليوم صديقاً .. وهكذا الصداقة المخلصة تعظم في الحن قيمتها ، وتظهر في الشدائد ثمرتها ، وهكذا الإيمان القوى لا تضعفه الفتن ،

ولا تزججه عواصف الزيف والضلال ، بل يهزأ بالأعاصير والأنواء . ويسخر
من تقلبات الأجواء .!

إن ذكرى الإسراء والمعراج مشرقة عطرة ، تحيي الإيمان في النفوس
وتبعث في القلوب العظة والعبرة ، رأى فيها النبي الكريم الآيات البينات
وغمرت من الله الفيوضات والرحمات ، وفتحت له جميع الأبواب ، حتى وصل
إلى أسمى مقام وأعلى جناب ، وكان من شرف هذه الليلة المباركة أن فرضت
فيها الصلاة ، وتلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر بها بنفسه من مولاه ،
وكان من فضل الله ورحمته بالرسول والمسلمين ، أن جعل الخمسين صلاة خمس
صلوات ، ثم جعل للخمس ثواب الخمسين .. « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه
من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

مواطن العبر في غزوة بدر الكبرى

« لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »

« حديث شريف »

يطالعنا في كل عام هلال رمضان المبارك . فيسرى ضوؤه في أطواء القرون مبدداً غواشي الظلمات ؛ مجدداً في قلوبنا روائع الذكريات ؛ مهيباً بنا إلى التماس العبر من تاريخ الإسلام العطر وأجاده الخالدة . . . بيد أن أعظم الذكريات التي تزدهر في نفوسنا على مدى الأزمان ؛ وينتشر سناها كلما أشرق هلال ومضان ؛ ذكرى غزوة بدر الكبرى وهي أول معركة كبيرة في الإسلام قامت بين الحق والباطل فانتصر الحق وأبنع وأثمر ، وخذل الباطل وذوى ثم هوى (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ؛ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » ..

وإنه لمن التكرار الضئيل الفائدة أن نعيد سرد هذه الغزوة إلى القارىء بجميع الدقائق والتفاصيل ؛ ما دامت أمهات الكتب التاريخية قد أوسعت الكلام في هذا السبيل ؛ ونحن لذلك سنجتزئ الكلام أحياناً ؛ ولكننا سنقف لدى مواطن العبر في تلك الغزوة سائلين الله أن يجعل لنا من ذلك خيراً أسوة وأكرم قدوة .

لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة في عدد من أصحابه يبلغ خمسة وثلاثمائة رجل . وكانوا يريدون أن يعترضوا عيراً لقريش آتية

من الشام يقودها أبو سفيان بن حرب في جمع قليل لا يتجاوز الأربعين^(١) وحينما علمت قريش في مكة بخروج المسلمين لمواجهة تلك العير؛ نفروا سراعاً في عدد كبير يكاد يبلغ ثلاثة أمثال المسلمين؛ وخرج على رأسهم عطاء قريش وصناديدها وذوو الرأي فيها ليلتقوا مع محمد وأصحابه؛ كي ينقذوا أموالهم وتجارتهم؛ وينقذوا مع ذلك مجدهم وكرامتهم.

وكان خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة كما ذكر ابن هشام «لثمان خلون من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يعتقبونها»^(٢) كل اثنين منهم؛ وكل ثلاثة؛ وكل أربعة يعتقبون بعيراً، وكان حظ محمد في هذا كحظ سائر أصحابه فكان هو وعلى ابن أبي طالب ومرثدبن مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً واحداً «وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة إعجاب وتقدير لهذا الموقف الكريم من النبي العظيم؛ فهو يشارك أصحابه في الشدة والرخاء؛ ويقاسمهم السراء والضراء، ويكره أن يتميز عليهم حتى في الشيء اليسير؛ فلا يريد أن يختص وحده ببعير! ألا إن في ذلك لعبرة!

وحينما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قريشاً قد خرجوا بجمعهم لينعوا عيرهم؛ جمع أصحابه واستشارهم، فتكلم أبو بكر ثم عمر بما يؤيد الرسول صلى الله عليه وسلم ويعضده، ثم تكلم المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله؛ امض لما أراك الله فحنن معلن، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إناها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك

(١) إنما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك رداً لما لحقه من ظلم وعدوان سابقين، ولكي تظهر قوة الإسلام فيها به الأعداء وينصوي تحت لوائه من يشاء دون خوف

(٢) يعني يتبادلون الركوب على البعير لكل واحد نوبته.

فقاتلنا إنا معكم مقاتلون» ثم تكلم سعد بن معاذ من الأنصار فقال : « لقد آمننا بك وصدقناك ؛ وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك . فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله » .

وهنا أيضاً يجدر بنا أن نقف وقفة إعجاب وتقدير ، فإن عظمة الجنود إنما تتركز على أساس من عظمة القائد ، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقود أصحابه إلى ميدان الجهاد مستضيئاً بهدى القرآن وتعاليم الإسلام التي تعد المجاهدين في سبيل الله إحدى الحسينين ؛ وتبشر الشهداء بالحياة السعيدة الخالدة حيث يقول الله عز وجل : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ؛ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . ومن أجل ذلك نجحت تلك القيادة الرشيدة وسادت حتى علا لواء الإسلام في كل مكان ؛ وانسابت كلمة الحق بين الأمم تحيي موات الأنفس والأرواح والقلوب . . . وإن في ذلك لعبرة .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في طريقهم ، وقد أشرق وجه الرسول بالمسرة لما رأى من قوة إيمان المسلمين ، وقال لهم « سيروا وابشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ^(١) والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » ولكن شاء الله أن يفلت العير من المسلمين . وأن ينبجو

(١) العير التي كان يقودها أبو سفيان . والنفير الذين خرجوا من مكة لانتفاذ العير .

أبو سفيان بما معه من أموال ورجال ، وعلم النفير من قریش وهم في طريقهم
لإنقاذ العير وقتال المسلمين بأن العير قد نجت . فود كثير منهم الرجوع
إلى مكة ، حتى لقد رجع بنو زهرة عن آخرهم ، ولكن أبا جهل رأى
في ذلك العار والصغار وقال « والله لا نرجع حتى نرد بدرًا — وكانت بدر
موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام — فنقيم عليه ثلاثًا فننحر
الجزر ونطعم الطعام . ونسقي الخمر . وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب
وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها فامضوا »

وقد استجابت سائر قریش لرأى أبي جهل وساروا حتى وصلوا وادي
بدر فنزلوا بالعدوة^(١) القصوى عن المدينة خلف كثيب من الرمل يهتمون به ؛
أما المسلمون وقد فاتتهم الغنيمة وأفلت العير منهم فقد أجمعوا على الصمود
أمام العدو مهما بذلوا في هذا السبيل ، فساروا حتى نزلوا بعدوة الوادي الدنيا
من المدينة لدى أدنى ماء من بدر .

وكان الحباب بن المنذر بن الجموح عليًا بهذا المكان ؛ فلما رأى حيث
نزل النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله . أرايت هذا المنزل . أم نزل
أنزلك الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو للرأى والحرب
والمسكيدة ؟ قال محمد : بل هو للرأى والحرب والمسكيدة ، فقال : يا رسول الله
فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزل
ثم نعوّر ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضًا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم
فنشرب ولا يشربوا . وحينئذ فكر الرسول صلى الله عليه وسلم فافتنع بهذا
الرأى السديد ، وأعلن أمام المسلمين أنه قد نزل على رأى الحباب وأن في ذلك
الحكمة والصواب . .

(١) عدوة الوادي شاطئه وجانبه

وهنا أيضا ينبغي أن نقف وقفة إعجاب وتقدير ، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم مستبداً برأيه ولا راكباً من الغرور بل كان يشاور أصحابه كي يتلمس وجه الخير والرشاد عملاً بقوله تعالى (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) وكان يحترم الرأي الصائب وينفذه ولو تعارض مع رأيه ، فهل يكون في ذلك عبرة وتبصرة ؟ إن القادة والرؤساء كثيراً ما يعيهم التعصب الممقوت ، والاستبداد بالرأى فينزلقون إلى الشر ويمجرون وراءهم الأمم والشعوب إلى مهاوى الفناء ، ولو استطاع هؤلاء القادة والرؤساء السادرون في عماية الكبرياء والأنانية أن ينتفعوا بهذا الدرس العملي من المربي الأول صلوات الله وسلامه عليه ، وبمثله من الدروس التي ألقاها الزعماء والمصلحون على الإنسانية ، لتغير مجرى التاريخ في كثير من الأزمنة والعصور .

ولما نفذوا رأى الحباب ، وبنوا الخوض قال سعد بن معاذ : « يا نبي الله ، نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » ، وقد أثنى الرسول صلوات الله وسلامه عليه على سعد ودعاه له بخير ثم بنى العريش للنبي حتى يكون في مأمن من العدو إذا لم يكن النصر في جانب المسلمين ؛ وهكذا الإخلاص والإيثار إنما يظهران في أوقات الحزن ، وهكذا الإيمان العميق يتجلى نقاؤه وصفائه أمام الشدائد ، وبمثل هذا الإخلاص والإيثار والإيمان من الله على المسلمين ، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وإن في ذلك لعبرة .

وفي اليوم السابع عشر من شهر رمضان^(١) بدأت المعركة بين فئتين ،
 فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، فكان هذا اليوم يوما عسيرا على
 الكافرين غير يسير . وقد لجأ فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى ربه
 خاشعا متضرعا حينما رأى قوة المشركين وكثرة عددهم إلى جانب قلة عدد
 المسلمين ، وظل يهتف من أعماق نفسه قائلا : « اللهم هذه قریش قد أتت
 بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم أن
 تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد » . وهكذا حتى لقد ستمط رداؤه عن منكبه
 فردده عليه أبو بكر وهو يقول : « يابى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله
 منجز لك ما وعده » ولكن الرسول الكريم يظل فيما هو فيه من ضراعة
 وابتهاال مشغولا عن نفسه وعن كل ماحوله بدعاء ذى الجلال . حتى أخذه
 خفقة من نعاس فرأى نصر الله يضيء ويملأ الآفاق ، واستيقظ فرحا مستبشرا
 وخرج إلى الناس يحرضهم على القتال ويقول لهم : (والذي نفس محمد
 بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله
 الله الجنة) .

وقد تجلت عناية الله برسوله وبالمؤمنين فأيدهم بجنوده وملائكته فكانت
 كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . وانجلى المعركة عن هزيمة
 المشركين فولوا مدبرين بعد أن قتل المسلمون منهم سبعين وأسروا مثل ذلك ،
 بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا فحسب ، (وكمن فئة قليلة
 غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وقد ذكر الله هذا الفضل
 والنعمة في كتابه الكريم فقال : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى

(١) يروى أن هذا اليوم هو نفس اليوم الذى ابتداء فيه نزول القرآن ، وبين
 التاريخين أربعة عشرة سنة قريية .

مُحَمَّدٌ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ
قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ
إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ
فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

وبعد فهذه بعض العبر من غزوة بدر الكبرى — وكم فيها من عبر
وعظات كثيرة — وما أحوج المسلمين في كل عصر وحين إلى الانتفاع بمثل
هذه العبر الخالدة حتى يستردوا المجد الغابر ويصلوا الماضي بالحاضر (والذين
جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) .

ولا يحق المكر السيء إلا بأهله

بين يهود الأمر اليوم^(١)

دعوة الإصلاح في كل عصر وحين تتركز دائماً حول تكوين الخلق وتديم بنائه ، وحياطته بسياج حصين يمنع عنه عوادي الضعف والوهن . . . وعلى هذا الأساس القوى المتين قامت الأديان فجاءت بالنظم الصالحة والقوانين العادلة التي لو نفذت بحذافيرها لأقامت الناس على المحجة الواضحة ، وأخذت بأيديهم إلى الأدب القويم والخلق الكريم ، وإلى هذا المعنى يشير الرسول صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول « أدبني ربي فأحسن تأديبي » و « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولا شك أن حوادث الزمن وتجارب الأيام قد علمتنا أن نؤمن إيماناً أثبت من الرواسي ، وأعمق من خفايا الضمائر بأن الأمم لا تنهض نهضة سليمة ولا تحيا حياة كريمة إلا في ظل الآداب والأخلاق القويمة ، ومهما ير راؤون من مجد وسلطان لأمة تنكبت طريق الآداب ، وحادت عن شرعة الحق والصواب فإنه مجد قلق وسلطان زائف سرعان ما تعبت به الأحداث وتذروه الرياح ، ذلكم بأن الباطل ليس له قرار ، ومهما بلغ من ضخامة فهو على شفا جرف هار ؛ ومن يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة . .

وقد عرفت الإنسانية الخير والشر منذ كان النهار والليل ، ونعمت منذ فجر حياتها بالخلق الكريم ، كما شقيت في الوقت نفسه بالمكر السيء والطبع اللئيم ، ولو كان الناس يعتبرون بما أصاب القرون من قبلهم ، ويرون

(١) نشرت بمجلة الحج سنة ١٣٧٠ هـ ويقدمها المؤلف إلى « إسرائيل » المزعومة ،

بشيراً بنهايتها المشئومة .

ماذا جنى الغدر والبغى والمكر السيء على ذويه ، لا ستقام الجميع على الطريقة ، واصفت الأجواء من غيوم البغضاء والشحناء وعاش العالم في جو مزدهر بالأمن والسلام . .

والعالم الإسلامي الآن محوط بالشر من كل جانب ، وما أشبه ما يعاينيه المسلمون في هذه الأيام من غدر الأعداء وبغيتهم ومكرهم الخبيث ، بما كان يعاينيه المسلمون من الأعداء في أول عهدهم بهذا الدين الحنيف ، ونضرب مثلاً لذلك موقف إسرائيل اليوم من جيرانهم المسلمين ، فإنه يذكّرنا إلى حد كبير بموقف اليهود في يثرب من جيرانهم الأنصار والمهاجرين ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عقد مع اليهود عهداً فنبذوها ، وارتبط معهم بمواثيق فسرعان ما نقضوها جرياً وراء أهوائهم ، وحرصاً على ماظنوه ينفعهم ويفيدهم ، وكان أساس تلك العهود التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود . الأخوة في السلم والدفاع عن المدينة في وقت الحرب ، والتعاون التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما ، ولكن اليهود — كعادتهم — غدروا وخانوا ، وكانت عاقبة هذا الغدر والخيانة شؤماً عليهم وشرّاً ووبالاً حاق بهم .

فيهود بنى قينقاع نكثوا أيمانهم ونقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأوا المسلمين بالعدوان ، ومن ذلك أن امرأة من نساء الأنصار قدمت إلى سوق اليهود من بنى قينقاع ومعها حلية لكي تعرضها على صائغ منهم ، فجلست إلى صائغ في تلك السوق ، فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها وهي تأتي ، فجاء يهودى من خلقها في سر منها فأثبت طرف شوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها فضحك اليهود

وصاحت المرأة صيحة هي مزيج من الحزن والندم والخجل والاستغاثة ،
فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله ، واجتمعت اليهود على
المسلم فقتلوه .. وحينئذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساءهم ، وطلب
إليهم أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد المودة والسلام حتى
لا يصيبهم ما أصاب قريشا في غزوة بدر ، ولكنهم استخفوا بوعيده وأجابوه
« لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصببت منهم فرصة
إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس » ثم تظاهروا بالعداوة وتحصنوا
في حصونهم فلم يكن هناك بد من مقابلة الشر بمثله وإلا تعرض مركز المسلمين
للتداعى والانهيار ..

ويهود بنى النضير — أيضا — نقضوا العهد والميثاق مع المسلمين ، وبدأ
الغدر والعدوان من جانبهم ، فهموا بأن يلقوا على الرسول صلى الله عليه وسلم
صخرة وهو مستند إلى جدار في محلتهم ^(١) مع نفر من أصحابه ، ولكن
الرسول الأكرم رأى برهان ربه وأطلعه الله على مؤامرتهم الغادرة الفاجرة
فقام راجعاً إلى المدينة وقام أصحابه من بعده . ثم اجتمع الرسول بالمسلمين
في المسجد وعرض الأمر عليهم ، وكان أن أرسل الرسول إلى بنى النضير
محمد بن مسلمة وقال له « اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله
أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي ؛ لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم
بما همتم به من الغدر بي ؛ لقد أجلتكم عشراً ، فمن رثى بعد ذلك ضربت
عنقه » ..

(١) كانت محلتهم على مقربة من قباء

ويهود بنى قريظة — كذلك — نقضوا العهد مع المسلمين في غزوة الأحزاب ، وقد كان ذلك في أخرج الظروف ، وأعنف الأزمات ؛ وفي وقت تأمرت عناصر الشر فيه ضد المسلمين ، وتألب الطغيان عليهم من كل مكان ، وهو الوقت الذي وصفه الله تعالى بقوله « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً ؛ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ؛ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا »

وقد لقي اليهود جزاء غدرهم وحل بهم سوء صنيعهم ، وجنوا عاقبة خيانتهم خسرانا ونكالا أصابهم في أموالهم وأنفسهم ، وهم أحرص الناس على المال والحياة .

فأما بنوا قينقاع فقد حاصرهم المسلمون في دورهم خمسة عشر يوما متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد . . حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد صلى الله عليه وسلم . فانتهى الأمر بإخراجهم من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال . فذهبوا أذرعاً بالشام . .

وأما بنوا النضير فقد طردوا كذلك من ديارهم على أن يكون لكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ، وأفاء الله ما بقي من أموالهم على المسلمين ، وقد ذهب بعضهم إلى خيبر وسار الآخرون إلى أذرعاً بالشام . .

وكان جزاء بنى قريظة - وهم الذين خذلوا المسلمين في وقت الشدة بانضمامهم إلى المشركين في غزوة الأحزاب ؛ ولولا لطف الله لهلك المسلمون عن آخرهم - كان جزاؤهم أن يقتل رجالهم وتسبي نساؤهم وذرايرهم ، وقد أسلم أربعة من بنى قريظة فنجوا من القتل ، وضربت أعناق الباقين وما ظلمهم الله ولكن كانوا لأنفسهم من الظالمين

وها هي ذى إسرائيل اليوم تمثل دور اليهود القديم مع المسلمين دور الخديعة والمكر ، والخيانة والغدر والجبن والخور ، فهي تعمل في الخفاء كما كانوا يعملون ، وتستعين ببعض الدول الكبرى على المسلمين كما استعان بنو النضير بقريش على الأنصار والمهاجرين ، وتؤلب على العروبة والإسلام الأحزاب كما فعل اليهود مع المسلمين في غزوة الأحزاب ، ومن عجب أن تجد إسرائيل أعواناً من العرب والمسلمين وهم أولئك الذين عرف العالم مخازيهم وفضائحهم وتولى القضاء محاکمتهم ، كما وجد اليهود على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أعواناً من المنافقين ، وهم أولئك الذين تحدث الله عنهم بقوله : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم . ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولنَّ الأدبار ثم لا ينصرون » .

ألا إن التاريخ ليعيد نفسه وما أشبه الليلة بالبارحة ، وإن اليهود ليسيروا الآن في ضلالهم القديم ، وإن الهوان الذى أصابهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لينتظرهم .

وإنه لحقّ على المسلمين أن يستضيئوا في هذه المحنة بمبادئ الإسلام ،
وأن ينفذوا تعاليم الدين القويمة ، وآدابه الحكيمة فيما بينهم كما نفذها الرسول
صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتى تتحقق للمسلمين الأخوة الكاملة والإخلاص
الشامل .. وحينئذ يأتى اليوم الموعود والنصر المبين ، ويخرب اليهود بيوتهم
بأيديهم وأيدي المؤمنين ، ولا غرو فإن الظلم لا يدوم ، ومرتع البغى وخيم ،
ولا يحيق المكر السىء إلا أهله .

(١) غيرة محمودة ونافس شريف

يتجه الإسلام في علاج الأمراض الأخلاقية والمشكلات الاجتماعية إلى أقوم طريق ، ويوجه الغرائز البشرية والطبائع الإنسانية إلى المنهج السوى الصالح ، فهو لا يقاوم الرغبات بل يقومها ولا يناهض الطبائع والعادات بل ينهض بها ولا يقتل الحيوية الموجودة في النفوس إذا ما جمحت أو ينزل بها إلى الدرك الأسفل وإنما هو يحميها ويسمو بها « ويعليها » .

ولقد عالج الإسلام العصبية القبليّة في نفوس العرب على هذا الأساس السليم فوجهها إلى الناحية الصالحة المستقيمة ، وحول ذلك التيار القوى الذي كان يغذيها إلى اتجاه جديد يوصل إلى غاية مجيدة ، فبعد أن كانت غاية المرء في الجاهلية هي نصرته قبيلته والدفاع عن أهله وعشيرته مهما نأوا عن الحق وتشبثوا بالباطل ، أصبحت الغاية في الإسلام هي نصرته الحق على الباطل ولو حارب المرء في هذا السبيل أهله وبنيه ، وتبرأ من أمه وأبيه وفصيلته التي تؤويه ، وبذلك صارت الحمية الجاهلية عزة إسلامية وعصبية دينية ، وأصبح التنافس القبلي البغيض تنافساً رشيداً يسعى إلى التعمير لا التدمير ويهدف إلى الانشاء والبناء لا إلى الهدم والافناء وغدا التسابق على المادة أو الجاه والسلطان تسابقاً في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق ورفع لواء الإسلام .

وبين الأوس والخزرج منذ استقروا في يثرب صراع قوى على الجدل

المادى والأدبى أوجدته العصبية الجاهلية التى كانت تمشى فى أرجاء الجزيرة العربية كما يمشى الوباء ، وتسرى بين القبائل والبطون كما تسرى الهواجس والظنون ، بل كما تسرى النار فى الهشيم ، لا تذر من شىء أنت عليه إلا جعلته كالرميم ، وكثيرا ما أدت هذه العصبية بين الأوس والخزرج إلى حروب دامية لم تكن تهدأ حيناً إلا لتبدأ من جديد قوة عنيفة ، وكان آخر هذه الأحداث ما وقع بين الفريقين فى يوم بُعث ، وهو يوم مشهود فى تاريخ الأوس والخزرج هلك فيه قادتهم ورؤسائهم وتصدعت قوتهم ، وتعرض مركزهم فى يثرب للدمار والانهيار ، وابتدأ جيرانهم اليهود يقيمون على أنقاض هذا الضعف قوة كبيرة جعلت الأوس والخزرج يعضون بنان الندم ، ويمسسون بالخطر الداهم يحيط بهم ، ويتلفتون ذات اليمين وذات الشمال إلى القطب المرشد ، والربان المنقذ والمرفأ الأمين . .

وفى وسط هذا الشر المطبق والفتن المتكاثفة ومن خلال هذا الضباب المترام ، لاح بريق الأمل ، وأقبل الحق المطارد فى مكة يسعى إلى يثرب ، يسوقه الباطل بحمافله كما تسوق الرياح الصيب الهتون . . وجاء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بالهدى والرشاد ففضى على الفرقة وجمع الشتات ، وأحيا الله به القلوب الموات (وألَّفَ بين قلوبهم لو انفقَ ما فى الأرض جميعاً ما ألَفْتَ بين قلوبهم ولكنَّ الله ألَّفَ بينهم إنه عزيزٌ حكيم) وكان من الطبيعى أن يحول الإسلام ذلك التيار القوى الذى يغذى العصبية القبلية فى نفوس الأوس والخزرج إلى وجهة كريمة هى الغيرة الحمودة والتنافس الشريف الذى يسعى إلى أجل قصد وأنبل غاية ، وهى إعلاء كلمة

الإسلام والقضاء على أعدائه الألداء في كل مكان . . فصار الأوس والخزرج يتجهون إلى هدف واحد هو إرضاء الله ورسوله ولكن يتسابقون في هذا السبيل ويتنافسون ، ويأبى كل فريق منهما أن يسبقه الآخر بميزة ، أو يتقدم عليه بفضل ، أو يزيد عنه في تضحية وجهاد وفي هذا يقول ابن هشام في سيرته نقلاً عن ابن اسحق « وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تصاول الفحلين لا تصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غناء إلا قالت الخزرج والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك » . .

ولاغرو أن مظاهر هذه المنافسة الكريمة بين الفريقين كثيرة تقيص بها كتب السيرة والتاريخ وقد يكون من حق القارئ أن يتساءل عنها جميعاً ولكننا — رعاية للمقام — نكتفي باستعراض صورة واحدة هي قصة مقتل كعب بن الأشرف من يهود بني النضير ، وقصة مقتل سلام بن أبي الحقيق من يهود بني النضير أيضاً ، ففي هاتين القصتين يجد القارئ صورة واضحة لهذا التنافس الكريم .

وذلك أن الأوس كان لهم الفضل والشرف الأكبر بقتل عدو الله كعب بن الأشرف ، وإنما قتله الأوس جزاء غدره وخيانتته وظلمه وعدوانه ومن ذلك أنه حينما علم بانتصار المسلمين في غزوة بدر جزع وحزن ، وتألم وتبرم ، وقال لمن معه من أصحابه « أترون محمداً قتل هؤلاء؟ — يعني المشركين الذي قتلوا يوم بدر — إنهم أشرف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد

أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . ثم انطلق عدو الله حتى قدم مكة وجعل يحرض على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القلب من قریش الذين أصيبوا ببدر ، ومما يروى في ذلك قوله :

طنحت رحا بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لاتبعدوا إن الملوک تصرع
كم قد أصيب به من ابيض ماجد	ذی بهجة تأوى إليه الضيع
طلق الیدين إذا الكواكب أخلفت	حمل أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم	إن ابن الاشرف ظل كعبا يجزع ^(١)
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

إلى أن يقول مہيجا الشعور ضد المسلمين :

نبئت أن الحارث بن هشامهم	في الناس يبنی الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما	يجمی على الحسب الكريم الأورع

ولم يكتف كعب بن الأشرف بتحريض المشركين في مكة ، بل إنه رجع إلى المدينة وأخذ يشبب بنساء المسلمين حتى أودى المسلمون وضجروا . وحتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من لى بكعب بن الأشرف ؟ فأجابه من الأوس محمد بن مسلمة قائلا : أنا لك به يارسول الله ، أنا أقتله . قال : فافعل إن قدرت على ذلك ، ففكر ابن مسلمة في هذا الأمر وأعد له عدته مع طائفة من إخوانه ، فاجتمع في قتله خمسة رجال من الأوس هم : محمد ابن مسلمة ، وسليمان بن سلامة أبو نائلة « وكان أخا كعب من الرضاعة » .

(١) أصلها أن ابن الاشرف كعبا ظل يجزع فاخر (كعبا) لضرورة الشعر .

وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ ، وأبو عبس بن جبر ،
وقد ذهبوا إلى منزله ليلاً واستدرجوه إلى الخارج حتى اطأ أن إليهم - والحرب
خدعة - ثم صاح أبو نائلة قائلاً : اقتلوا عدو الله ، فاختلفت عليه أسيافهم
حتى وقع صريع غدره وبغيه ، وفي ذلك يقول كعب بن مالك :
وغودر منهم كعب صريعاً فذلت بعد مصرعه النضير

ولقد كان هذا الحادث الجلل مظهر تضحية وإيمان من جانب الأوس
وأساس مجد وفخار لهم وحينئذ عز على الخزرج أن يسبقتهم الأوس إلى هذه
التضحية ، ويصلوا إلى مثل تلك الغاية دونهم فقالوا : « والله لا يذهبون بهذه
فضلاً علينا أبداً فتذاكروا من رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في العداوة
كابن الأشرف ؟ فذكروا سلام بن أبي الحقيق فاستأذنوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم في قتله فأذن لهم .. »

وسلام بن أبي الحقيق من يهود بني النضير أيضاً ومن الأعداء الألداء
للاسلام والمسلمين .

وقد رحل إلى خيبر بعد أن طرد الرسول بني النضير من ديارهم في السنة
الرابعة من الهجرة ، ومنذ ذلك الوقت أخذ سلام يثير النفوس دائماً ضد
المسلمين حتى أنه ذهب على رأس وفد إلى مكة يحرض قريشاً على قتال محمد
صلى الله عليه وسلم ويجزب الأحزاب عليه ، ولقد قالوا لقريش : إنا سنكون
معكم على محمد حتى نستأصله فقالت قريش : « يامعشر يهود إنكم أهل
الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟
قالوا بل دينكم خير من دينه وأتم أولى بالحق » وقد فرحت قريش بهذا القول
من اليهود واستجابوا لدعوتهم وجمعوا جموعهم وتجهزوا لحرب الرسول

صلى الله عليه وسلم ثم جاء اليهود إلى قبيلة غطفان وحرصوا رجالها ، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوافقوهم على حرب المسلمين وتجهزوا لذلك . . وكانت غزوة الأحزاب وفيها ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، ولولا لطف الله لا قتحم المشركون عليهم المدينة ، ولتغيّر وجه التاريخ . .

فليس بغريب بعد هذا كله أن يرى الخزرج في ابن أبي الحقيق العدو المبين الذي لا يقتل عن صاحبه كعب بن الأشرف في الكيد للإسلام والمسلمين وهنا تحركت الغيرة الكريمة في نفوسهم وأرادوا أن يلحقوا بإخوانهم الأوس فها قدموا من تضحية وما سبقوهم به من فضل وشرف ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتله فأذن لهم .

وقد خرج إليه من الخزرج خمسة نفر أيضا هم عبد الله بن عتيك ، ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أنيس ، والحارث بن ربيع ، وخزاعي ابن أسود حليف لهم من أسلم ، وقد أوصاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يقتلوا وليداً أو امرأة ، فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيق ليلاً . . يقول قائلهم « فلما دخلنا عليه ابتدرناه وهو على فراشه بأسيفنا فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قبطية ملقاة ، قال ولما صاحبت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكف يده ، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل . قال فلما ضربناه بأسيفنا تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه وهو يقول قطنى قطنى أى حسي حسي » .

وهكذا كانت نهاية ابن أبي الحقيق كما كانت نهاية صاحبه ابن الأشرف من قبله ، وهكذا تكون نهاية العدر والخيانة والظلم والعدوان ، وفي هذا يقول حسان بن ثابت وهو يذكر قتل كعب الأشرف وسلام بن أبي الحقيق . .

لله در عصابة لاقيتهم يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم مرحا كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم فسقوكم حتفا ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم مستصغرين لكل أمر مجحف

وبعد فهذه صورة من الغيرة المحمودة والتنافس الشريف بين الأوس
والخزرج بعد أن صقل الإسلام نفوسهم وطهرها من شوائب العصبية القبلية
البعيضة ، وإن هذا هو ميدان الغبطة والتنافس الرشيد الذي يسعى إلى نصره
الحق والقضاء على أعدائه ومناوئيه .

وما أجمل الغيرة التي تحمل صاحبها على أن يلحق بأخيه في البر والخير
دون حقد أو ضغينة ، وما أعظم التنافس الذي يدعو إلى التعاون في ظلال الإخوة
والإخلاص الشامل ... أما إذا تدنست الغيرة بالحسد ، وتلوث التنافس بالأثرة
والأنانية فهذا هو الداء العياء الذي يهدد الإنسانية بالويل والشقاء...
فعسى أن يكون لنا في تاريخ المسلمين الأولين وما ينطوى عليه من مثل
كرامة سامية ما يأخذ بأيدينا إلى المعاني الأخلاقية الفاضلة التي كانت تفيض بها
نفوس إخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفي ذلك
فليتنافس المتنافسون .

(١) الثلاثة الذين خلفوا

ثلاثة نفر أخلصوا لله وجاهدوا في سبيله ، وشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من المشاهد والغزوات ، وكان لهم في تاريخ الإسلام بلاء مشكور وجهاد مبرور ، أولئك هم كعب بن مالك وهلال بن أمية الواقفي ومرارة ابن الربيع العمري رضي الله عنهم أجمعين .

ولكن الله الذي يمتحن عباده بالحن والبلاء قد ابتلى هؤلاء الثلاثة بمحنة لولا لطف الله لعصفت بإيمانهم وطوحت بهم في مهاوى الهلاك والشقاء ، وكثيراً ما يبتلى الله عباده ليميز الخبيث من الطيب ويظهر الزائف من الصحيح والدخيل من الأصيل ، وقد قال تعالى « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » ثم يكون الجزاء في النهاية على قدر البلاء وبحسب الصبر والرضا بالقضاء . ولا غرو فقد قال تعالى « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » وقال « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة وكان الحر شديداً والسفر بعيداً والعدو قاسياً عنيداً ، وناهيك بجيش جرار من الروم يتربص الدوائر بالمسلمين ويستعد للدفاع بل للهجوم ، وقد استجاب لدعوة الحق رجال من المسلمين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنفروا للجهاد سراعا يضر بون في البيداء المترامية ويعبرون الصحراء القاسية بين الحر المرمض والسموم اللافح لا يكثرثون بوعثاء السفر ووعورة الطريق ،

(١) ألفت بالإذاعة السعودية ١٣٦٩ هـ .

ولا يثنىهم من غايتهم ما يحيط بهم إذ ذاك من المتاعب والخواف والأراجيف
التي يذيعها المنافقون ، بل يمدون في طاعة الله ورسوله أمنا وسلاما وظلاظليلا
دائما يغبنيهم عن ظلال الدنيا الزائلة ومتاعها الفانى القليل . !!

ولعل مما يصور لنا عظمة الروح وقوة العقيدة في نفوس أولئك المؤمنين
ما وقع لأبى خيثمة الأنصارى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلقد
تخلف عن المسير مع إخوانه المجاهدين أياما ثم رجع إلى أهله في يوم حار فوجد
امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها
وبردت له فيه ماء وهيات له فيه طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر
إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح
والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيا وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟ ما هذا
بالنصف ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله
صلى الله عليه وسلم فبيثا لى زادا ففعلتا ، ثم قدم ناضحة فارتحل ، ثم خرج
في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك .

وقعد عن الجهاد قوم من المنافقين كانوا قد أظهروا الإسلام ولما يدخل
الإيمان في قلوبهم ، وكانوا بضعا وثمانين رجلا غلبت عليهم شقوتهم وأصاخوا
لدعوة الشيطان ، فتركوا دون عذر ميدان الجهاد لأنهم يحبون العاجلة وهم
أحرص الناس على حياة ، ويظنون أن أمرهم سيخفى على رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأصحابه حتى إذا رجع المسلمون من ميدان الجهاد قاسمهم في السراء
دون الضراء ، وشاركهم في المغنم دون أن يشاركهم في المغارم .
ولم يتخلف عن الجهاد من المؤمنين الخالصين سوى كعب بن مالك
ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وهم الثلاثة الذين ذكرنا أسماءهم في صدر

هذا الحديث وهم الذين سماهم الله في كتابه العزيز بـ « الثلاثة الذين خلفوا » وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفهم أى أرجأ أمرهم إلى أن يقضى الله فيهم بأمره .

ولقد أخطأ هؤلاء الثلاثة ثم لم يلبثوا أن تابوا ورجعوا إلى الله وأنابوا فقبل الله توبتهم وغفر لهم خطيئتهم والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

ولقد روى لنا كعب بن مالك قصته وقصة صاحبيه منذ تخلفوا عن ركاب إخوانهم المؤمنين المجاهدين إلى أن انجلى ليل محنتهم وأذن الله رسوله بقبول توبتهم ، وهانحن أولاء نلخص لكم بمعناها لكي نقف معكم على سرها ومغزاها يقول كعب : إنه كان يتنقل في المدينة منذ خرج إخوانه للجهاد فيحزنه ألا يرى في طرفاتها إلا طفلاً صغيراً ، أو رجلاً ضريراً ، أو شيخاً مهيبض الجناح ليس عليه في تخلفه جناح ، ولا يرى أحداً قد تخلف من الشباب والرجال الأقوياء سوى أهل النفاق والرياء .

ويقول كعب : إن الرسول حينما رجع من تبوك دعاني حتى جئت بين يديه ، فسألني عن أمر تخلفي وهو يتبسّم تبسم الغضب ، فاعترفت بذنبي ولم أفتّر الكذب وأختلق الأعذار كما فعل غيري من المتخلفين المنافقين . ثم دعا صاحبيّ إليه فاعترفنا بذنبيهما ، وإذ ذاك أمهلنا الرسول حتى يقضى الله فينا بأمره ، ونهى الناس عن كلامنا حتى تنسكرت لنا الدنيا وتغيرت ، وضاعت علينا الأرض بما رحبت ، ولم يعد لنا ملجأ من الله إلا إليه .

ويقول كعب : إن ملك غسان النصرانيّ حينما بلغه نبأ محنتي كتب إلى يستميلني إليه قائلاً : « أما بعد قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدارهوان ولا مضّيعة فالحق بنا نؤاسك — وكأنما أراد الله أن يزيد في ابتلائي بمثل هذا الكتاب ، هل أفنتن بالدنيا وزخرفها فاستجيب لدعوة ذلك

الملك النصراني حيث أفضى أيام الحياة بين العيش الناعم والفراش الوثير ،
وليكن بعد ذلك في الآخرة ما يكون ؟ أم أصبر على ما يحيط بي من المتاعب
والآلام مهما تتابعت وتلاحقت طمعاً في رحمة الله وانتظاراً لمغفرته ورضوانه ،
وإيثاراً للآخرة حيث السعادة والنعيم والملك الكبير ؟ ولكنني اخترت الباقية
دون الفانية ، وآثرت الآجلة على العاجلة ، فقامت إلى كتاب الملك الغساني
فأحرقته في التثور ، وفوضت أمري إلى الله الذي إليه تصير الأمور .

ويقول كعب : إن محنتنا استمرت خمسين يوماً متتابعة ما كان أطولها
وأقساها ، ولكننا لم نجد ملجأ من الله إلا إليه ، فصبرنا صبراً جميلاً ، وجاهدنا
أنفسنا جهاداً طويلاً ، حتى بدل الله العسر يسراً ، وجعل لنا من الضيق
فرجاً ، ومن الهم مخرجاً ، فأذن رسوله بغفران خطيئتنا ، وقبول توبتنا ، وجاءنا
البشير بذلك فأتينا إلى الرسول مسرعين ، فوجدنا وجهه يبرق من السرور ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة
قمر . وإذا به يتلو علينا قول الله عز وجل : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ
يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ
الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ
أَنْفُسُهُمْ وَظَلُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » .

أما أولئك المناقون البضع والثمانون فإنهم حينما رجع الرسول من الجهاد
قابلهوا يحلفون بالله إنهم معذورون ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، فلم يلبثوا
حتى كشف الله أمرهم ، وَبَيَّنَّ لِلرَّسُولِ عَاقِبَتَهُمْ ، وذلك قوله تعالى « سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُغَرِّضَنَّ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ

«وَمَا أَوْفَّقَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْهُ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

وبعد؛ فهذه قصة كعب وصاحبيه ، ومن ثناياها يتجلى لكم مثل رائع من الإخلاص الصادق ، والإيمان العميق ، والعقيدة الراسخة التي لا تعصف بها الحوادث ، ولا تنال منها الكوارث ، ولا يزيد لها تطاول الأيام إلا رسوخاً ووقوةً ، وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، تهون في سبيله الصعاب ، ويستعذب من أجله العذاب ، ويستمرأ بإزائه المرء والصاب .

ومن ثناياها ترون أن الصبر على البلاء ، والاطمئنان للقضاء ، والصمود للبأساء والضرراء عن رضى ويقين ، ذلكم هو السبيل القويم الذى يكفر الذنوب والآثام ، ويضمن للإنسان البراءة والنجاة «بَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ» .

ومن ثناياها ترون أن منطق النفاق كليل ، وسلاحه مفلول ، وعمره قصير وحجته داحضة ، وأنه مهما بالغ فى التستر والاستخفاء ، لابد أن تنكشف حقيقته أمام من لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء . . .

والمنهج القاصد للمؤمن المجاهد ، هو أن يسير فى حياته على أساس من الإيمان الصادق الذى لا يتخادع ولا ينافق ، حينئذ يحيا حياة طيبة ويؤتاه الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

الاسلام والعصبية

كانت الظاهرة الواضحة لدى العرب في الجاهلية هي العصبية القبلية ، وهي نكرة أصيلة في العربي ، توارثها منذ القدم عن آبائه وأجداده . وقد نشأت من اعتداده بنفسه إلى درجة الغلو والإسراف ، وهو أمر فطر عليه بسبب البيئة الصحراوية الخالية من الأسوار والحصون ، والمعرضة للسلب والنهب . ومثل هذه البيئة لا يمكن أن يستقر بها إلا الشجاع المغامر . وهذه الشجاعة لا تفيد فائدة كاملة ولا تأتي بالثمرة المرجوة إلا إذا دعمت بالعصبية التي تشد الأزر وتقوى الجانب . وهم من أجل ذلك كانوا يهتمون برابطة القرابة ويرعون حقوقها ، لأنها عدتهم وسلاحهم الذي يقاومون به الأخطار والشدائد ، فكان يرتبط الأقرب فالأقرب منهم برباط المودة والنصرة . وفي وقت الحروب والثورات يجتمع الأقرب فالأقرب ضد الأبعد فالأبعد ، فيجتمع الفصيلتان من فخذ واحد على فخذ آخر ، ولو كانوا جميعاً من بطن واحد ويجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ، ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة ، وتجتمع القبائل العربية كلها ضد الأجانب من غير العرب . وفي هذا تحقيق للمثل المعروف « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » وإذن فالعصبية العربية معتمدة على أساس من العصبية القبلية ، فإن

(١) ألفت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٦٩ هـ وقد بحثنا هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً في كتابنا « المولى في العصر الأموي » وتعرضنا لموقف الإسلام من العصبية بوجه عام وهو ما يشمل الشعوبية ثم تابعنا الصراع بين العصبية العربية والشعوبية إلى أوائل العصر العباسي .

العربي الذي يتعصب لقبيلته ضد القبائل الأخرى هو بعينه الذي يتعصب مع القبائل الأخرى ضد الأعاجم .

والعصية القبلية كانت تشور كثيراً بين العرب بسبب التنافس بين القبائل على النفوذ المادى والأدبى . أما العصبية العربية فكانت لا تشور إلا عند الاحتكاك بالأجانب . وقد كان ذلك من القليل النادر إذ ذاك . . .

ولو طوينا القرون القهقري ، وقابنا صفحات الزمن إلى الوراء ، وتبعنا العرب أيام الجاهلية في صحرائهم المترامية ، وتسمعنا إلى أحاديثهم وأشعارهم بين الأخبية والخيام ، ومن وراء الصخور والرجام ، لراعتنا تلك العصبية القبلية الخبيثة ، التي كانت تجعل من كل قبيلة دولة مستقلة ، لاتقف دون مطامعها المادية والأدبية حواجز أو حدود . وطالما ثارت الحروب بين القبائل من أجل تلك المطامع ، فأزهقت الأرواح ، وسالت الدماء ، وتناثرت الجثث والأشلاء . ومن ذلك ما وقع بين خزاعة وجُرهم ، وبين بكر وتغلب ، وبين الأوس والخزرج ، إلى غير ذلك من سائر الأحداث الكبار الجسام .

وإلى جانب هذه العصبية القبلية البغيضة كانت العصبية العربية ، فكان العرب على الرغم من تأخرهم في الأخذ بأسباب المدنية في ذلك العصر الجاهلى يغالون في تقدير أنفسهم ويحتقرون الأجناس الأخرى ، دون مبرر أو مسوغ من العقل أو المنطق السليم . وحسبنا أن نعرض لكم صورتين تلمحون في كليهما العصبية العربية سافرة متحدية :

فيروى ابن خلدون أن كسرى أبرويز أراد خطبة بنات العرب ، فأشار عليه عدى بن زيد أحد تراجمته بالخطبة من بنى منذر ، فقال له كسرى : اذهب إليهم في ذلك ، فقال : إنهم لا ينكحون العجم ويستريبون في ذلك ،

فابعث معي من يفقه العربية ، فلعل آتيك بغرضك ، فلما جاء إلى النعمان قال له النعمان : أما في عين السداد وفارس ما يغنيكم عن بناتنا ؟ وسأل الرجل عن العين ؟ فقال له هي البقر ! فلما رجع إلى كسرى وأخبره الخبر غضب كسرى وحقدّها على النعمان ، وكتب إليه يستقدمه ، فلما وصل إلى كسرى قيده وأودعه السجن ، إلى أن هلك فيه بالطاعون ، وفي رواية أخرى أنه قتله ، وكان هذا سبباً لقيام حرب ذي قار بين الفرس والعرب قبل البعثة بثمان سنوات . ولا شك أن هذا النص يوضح لنا عصبية العرب في جاهليتهم ضد الأعاجم ، واعتدادهم بأنفسهم حتى في الوقت الذي كان الفرس فيه ذوى نفوذ كبير ، ولم يكن العرب بجوارهم شيئاً مذكوراً ؛ وهو يلقي لنا ضوءاً على مدى تلك العصبية المغالية ، التي تترفع عن مصاهرة ملوك الفرس ، وهم إذ ذاك أصحاب الأمر والنهي بالحيرة ، ولهم فيها النفوذ الواسع والسلطان الكبير .

وذكر صاحب العقد الفريد أن النعمان بن المنذر قدم على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا عن ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها ، وامتدح العرب بالعزّ والمنعة ، فقال : حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذ غيرهم من الأمم عزّهم بالطين والحجارة وجزائر البحور ؛ وذكر النعمان بعد ذلك كثيراً من المزايا والفضائل التي اختصّ بها العرب دون غيرهم من الأمم ، وقد سجلتها كتب الأدب والتاريخ في حديث طويل لا محل لذكره الآن . ولا يهمننا من هذه القصة — وغيرها كثير — تصحيح نظرية العرب في أنهم يفضلون غيرهم من الأمم الأخرى ، ولكن المهم أن هذه القصة تدل على اعتداد العرب بأنفسهم وتحقيرهم لغيرهم .

فإذا كان موقف الإسلام إزاء ذلك ؟

ظهر الإسلام في هذا الظلام الحالك ، وبين تلك الأعاصير الحقاء ، فأشرف على العالم بدستور قوى متين ، يدعو إلى مكارم الأخلاق ، وينشر العدل والمساواة بين جميع الأمم والأفراد ، وينظم العلاقات بين الفرد والجماعة ، وينفي الفوارق بين العرب والعجم . وهكذا جاء حافلاً بالفضائل ، كفيلاً بإتقاذ الناس والسير بهم إلى شاطئ الأمن والسلام . وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب قريشاً ، حينما أتم الله عليه نعمته بفتح مكة ، فيقول : « يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب . ثم يتلو قوله تعالى : « يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » . وفي حجة الوداع ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى صوته فيقول : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس إعرابي على عجمي فضل إلا بالتقوى » .

ولم تكن هذه المبادئ الإنسانية العادلة قولاً ماثوراً أو كلاماً مسطوراً فحسب ، ولكنها كانت حقيقة واقعة ، تجلت في جميع أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الخالصين ، إذ امتحت من نفوسهم تلك المبادئ الهدامة ، فكانوا لا يفرقون بين قرشي وباهلي ، ولا بين عربي وعجمي . ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخالصين من الأعاجم في صف الخالصين من العرب جنباً إلى جنب ، وكتفياً إلى كتف ؛ فبالل الحبشي كان من خاصة المقر بين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر المسلمين ، وقد رفعه الرسول بإخلاصه وبلائه في الإسلام إلى أعز مكانة وأسمائها . وسلمان الفارسي

كان من المقر بين لرسول الله ولسائر المسلمين ، وهو الذى ولى قَسَمَ الغنائم بين المسلمين فى واقعة جَلُولاء ، حتى لقد أُنْسَتْه عدالة الإسلام جنسيته ، فكان يقول مفتخراً : « أنا ابن الإسلام » ؛ وصهيب الرومى كان أيضاً من المقر بين من رسول الله ومن سائر المسلمين ، وهو الذى قدمه عمر بن الخطاب على المهاجرين والأنصار ، فصلى بالناس إماماً ، وفى ذلك كل الإجلال والتقدير .

ولقد كانت هذه المبادئ الإسلامية العادلة التى نادى بها الرسول ، ونفذها هو وأصحابه المخلصون فى جميع تصرفاتهم ، سبباً فى إعلاء العصبيتين (القبلية والعربية) وتوجيههما إلى الناحية الصالحة المستقيمة ، فلقد تحول ذلك التيار الذى كان يغذيهما إلى تغذية عصبية أخرى ، هى العصبية الإسلامية ، التى تجعل المسلمين خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وتجعل التقوى والعمل الصالح مناطَ الفخر ، ودعامة المجد والشرف ، وتجعل فى الإسلام ما يعنى عن الحسب والنسب ، والرياش والنسب ، والتى تتمثل فى قول الشاعر المسلم :

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله مَنْ شَكَرَ

وقول الآخر :

أبى الإسلام لا أَبَ لى سواه إذا افتخروا بقبسٍ أو تميم

ولكن لم تكن هذه العصبية الإسلامية واضحةً فى نفوس المسلمين على السواء ، بل كانوا يتفاوتون فى ذلك على قدر تفاوتهم فى التمسك بذلك الدين الجديد والاقتناع بمبادئه . فلقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه بلغه عن أبى سفيان صخر بن حرب أمرٌ ، فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان

يتملقه ويتذلل له ، وأقبل أبو قحافة (والد أبي بكر) ، وكان قد أسلم إذ ذاك ، فسأل : على من يصيحُ ابني ؟ فقيل له : على أبي سفيان ، فدنا من أبي بكر وقال له : أعلَى أبي سفيان ترفع صوتك ؟ لقد تعدّيتَ طورك ، وجُزّتَ مقدارك ، فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار ، وقال : يا أبتِ ، إن الله رفع الإسلام قوماً وأذلَّ به آخرين .

ومنذ ذلك الزمن إلى هذا العصر الذي نعيش فيه . تظهر العصبية الإسلامية في نفوس بعض المسلمين فلا ينظرون إلى الرتب والألقاب والجاه والسلطان ، بل يقيمون تقديرهم للأُم والأفراد على أساس من التقوى والإيمان ، وتختفي العصبية الإسلامية أو تضعف في نفوس الآخرين فيعبدون الأصنام ، ويتقادون للأوهام وتفرقهم الأهواء الباطلة والشهوات الزائلة ، وبين هذين الفريقين من الناس صراعٌ قوى وتناؤدٌ وخصامٌ وحربٌ سجالٌ إلى أن يأذن الله للباطل بالزوال .

وبعدُ : فقد دعا الإسلام إلى الاتحاد والتضامن ، وحارب كل عصبية تدعو إلى تشقيق الوحدة الإسلامية وتوهين بنائها المتين . فما أحوج المسلمين في جميع الأقطار والأمصار إلى أن تنمحي من بينهم القوارق ، وتزول الحواجز ويتحد الهدف والغاية . وحينئذ يستطيعون أن يصارعوا تلك المبادئ الهدامة التي تحتاج العالم في هذا العصر وتهدهده بالفناء والزوال (ويومئذ يفرحُ المؤمنون بنصرِ اللهِ ينصرُ مَنْ يشاء وهو العزيزُ الرحيم) .

توزيع العطاء بين المسلمين ^(١)

في عهد الرسول وخلفائه الراشدين

قال الله تعالى (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيَّةِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

كانت موارد الدولة الإسلامية منذ فجر حياتها تتكون من الغنيمة والفىء والجزية والخراج والزكاة . فالغنيمة : هى كل مال وصل من الكفار للمسلمين على وجه الغلبة والقهر . والفىء : هو كل مال وصل من الكفار للمسلمين عفواً من غير قتال . والجزية : هى مبلغ معين من المال يوضع على الرؤوس ويسقط بالإسلام ، ولا تؤخذ إلا من الذميين ، فلا تؤخذ من مشركى العرب ، لأن هؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ، وقد ثبتت بنص القرآن بقوله تعالى قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) وكانت تؤخذ من الأغنياء ٤٨ درهماً

(١) أُلقيت بالإذاعة السعودية ١٣٦٩ هـ ويهدها المؤلف إلى وزراء المالية فى جميع الأقطار الإسلامية على توالى الأزمنة والعصور .

ومن المتوسطين ٢٤ درهماً ومن الفقراء الذين لا يكسبون ١٢ درهماً ومن عجز منهم كان يخفف عنه . والخراج : هو مبلغ معين من المال أو ما يقوم مقامه من زرع أو ثمر يوضع على الأرض لا على الرؤوس وقد لا يسقط بالإسلام ، والزكاة : هى مبلغ معين من المال أو من الزرع والثمار يؤخذ من المسلمين إذا ما بلغت أموالهم أو تجارتهم أو زرعهم وثمارهم النصاب الخاص .

وكانت هذه الموارد الأساسية تنحدر من منابعها المختلفة ثم تتجمع فى بيت مال المسلمين ، ويقوم بالإشراف عليها وتدير شؤونها الحاكم الأول للدولة الإسلامية ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده وكانوا جميعاً يسيرون فى توزيع تلك الأموال وتقسيمها بين المسلمين على ضوء من هداية الله وإرشاده ، ويضمون إلى ذلك خبرتهم وخبرة أصحابهم بالبيئة التى يعيشون فيها وتقديرهم جميعاً للجو الذى يحيط بهم ، فكان خمس الفىء والغنيمة يقسمان كما أمر الله تعالى خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين ، وسهم لذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، وسهم لليتامى وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل . وكانت أربعة أخماس الغنيمة تقسم بين الحاربين للراجل سهم وللفراس سهمان ، وأما أربعة أخماس الفىء فتبقى رصيداً فى بيت مال المسلمين يضاف إليه ما يتجمع بعد ذلك من الجزية والخراج والزكاة .

.. ولقد كانت الرقعة الإسلامية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيرة لا تتعدى شبه الجزيرة وكانت موارد بيت المال إذ ذاك محدودة ضئيلة

لا تكاد تسعف المسلمين بجميع ما يلزمهم في جهادهم وكفاحهم لإعلاء كلمة الحق والدين ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على الرغم من ذلك يصرف بيت المال بتدبير حكيم يهدف دائماً قبل مصلحة الفرد إلى مصلحة الجماعة حتى لقد كان يستخط عليه أحياناً بعض السفهاء من الناس أو قصار النظر أو ضعفاء الإيمان ، ولكن لا يلبثون حتى يتبين لهم بعد نظر الرسول صلى الله عليه وسلم وسداد رأيه ، ومن ذلك ما وقع عقب غزوة حنين حينما أعطى الرسول لبعض المسلمين من الأنصار عطاء سخياً ميزهم به على غيرهم ، لكي يتألف قلوبهم إلى الإسلام ، فتحدث قصار النظر من الأنصار بعضهم إلى بعض وقالوا : لقد لقي رسول الله قومه ، ويقصدون بذلك أن العصبية القبلية هي التي جعلت الرسول يميز بعض هؤلاء القرشيين ، فلما بلغت تلك المقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الأنصار وخطبهم قائلاً « يا معشر الأنصار ما قاله بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلّالاً فهذا كم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ أوجدتكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » فبكي الأنصار من فرط تأثرهم بكلام الرسول وأدركو مدى خطئهم وقالوا « رضينا برسول الله قسماً وحظاً »

وكان أبو بكر رضى الله عنه يتحرى العدالة الكاملة في توزيع العطاء بين المسلمين ، فلم يكن يفضل أحداً على أحد حتى ليروى أنه جاءه مال كثير قسمه

بين الناس ، فأصاب كل إنسان عشرين درهما ، فجاءه ناس من المسلمين فقالوا يا خليفة رسول الله ، إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم ، فلو فضلت أهل السوابق والفضل والتقدم بفضلهم ؟ فقال : « أمّا ما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم ، فما أعرفني بذلك وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثنائه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اتسعت رقعة الإسلام كثيرا بسبب الفتوح الإسلامية المتعاقبة ، فتمت الموارد ، واحتاجت المالية إلى مجهود ضخم ، يتناسب مع اتساع الدولة ، ويوازن بين الإيرادات والمصروفات ، على حد التعبير العصري الحاضر ، فوضع عمر ديوانا سماه ديوان العطاء ، وجعل العطاء نظاما يخالف نظام أبي بكر في الظاهر ، ولكنه في الواقع يتمشى مع العدالة والمساواة . ذلك أنه جعل التمايز في العطاء بحسب الأسبقية في الإسلام لا فرق في ذلك بين العرب والأعاجم ، فإن تساوا في ذلك ، فبحسب القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال في ذلك كلمته الماثورة « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » وفي بعض الأحيان كان عمر يفضل في العطاء بحسب المسكنة والمنزلة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعله كان يرى أن الرجل لا تعظم منزلته لدى رسول الله إلا على أساس من التقوى والإيمان الصادق ، فلقد فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف ، بينما فرض لعبد الله بن عمر - ابنه - ألفين ، فقال ابن عمر لأبيه : « فضلت على أسامة وقد شهدت ما لم يشهد ؟ فقال : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك ، وأبوه أحب إلى رسول الله من أبيك » .

وهكذا يتضح لنا من سياسة عمر ، أنه قد حاول بقدر الإمكان أن يطبق النظرية الإسلامية ، فلم يجعل التمايز بين الناس على أساس اختلاف القبائل أو الأجناس ، ولكن جعل الأساس هو التقوى والإخلاص ، وكثرة البلاء والجهاد ، وذلك إنما يكون في الغالب بالسبق إلى الإسلام ، لا فرق بين قرشي وباهلي ، ولا بين عربي وعجمي .

وقد كان سفيان بن عيينة يفسر نظرية أبي بكر ونظرية عمر في العطاء فيقول : ذهب أبو بكر في التسوية إلى أن المسلمين إنما هم بنو الإسلام كإخوة ورثوا آباءهم ، فهم شركاء في الميراث تتساوى فيه سهامهم وإن كان بعضهم أعلى من بعض في الفضائل ودرجات الخير والدين ، قال . وذهب عمر إلى أنهم لما اختلفوا في السوابق حتى فضل بعضهم بعضاً وتباينوا فيها كانوا كإخوة العلات وهم الإخوة لأب ، ورثوا أخاهم أو رجلاً من عصبيتهم فأولاهم بميراثه أسهم رحماً وأقدمهم إليه في النسب وكذلك هم في ميراث الإسلام أولاهم بالتفضيل فيه أنصرهم له وأقومهم به وأذهبهم عنه .

وأما عثمان بن عفان رضى الله عنه فقد خالف رأى عمر ، ورجع إلى رأى أبي بكر رضى الله عنه ، وهو التسوية التامة في العطاء بين المسلمين على اختلاف قبائلهم وأجناسهم ، حتى لقد أنقص عائشة عما كان يعطيها عمر بن الخطاب ، وصيرها أسوة غيرها من نساء الرسول .

وكذلك كان علي بن أبي طالب رضى الله عنه يسوى بين المسلمين في العطاء ، ولا يفضل سيدها على مسود ، ولا عزيباً على عجمي ، حتى لقد تقاعد عن نصرته الكثير من أشرف العرب من أجل ذلك ، ومشت طائفة منهم إليه ، وقالوا يا أمير المؤمنين ، أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب

وقريش ، على الموالى والعجم ، فقال لهم : أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور ؟

✻ ✻ ✻

وبعد ، فهذه صفحة مشرقة تتجلى فيها السياسة الإسلامية الرشيدة ، والتدبير الحكيم السديد ، وتدل دلالة صادقة على ما كان يتجه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من رعاية الصالح العام والحرص على سعادة الجماعة ، كل بحسب اجتهاده وتقديره على أساس من تعاليم الإسلام وفى ضوء مبادئه القويمية .

ولو أن القائمىين بأمر المسلمين والأمناء على أموالهم قرءوا هذه الصفحة الجيدة ثم رجعوا إلى أنفسهم وسألوها عما ينتهجون من سياسة ، وما يضعون بين أيديهم من أهداف . لكان لهم فى ذلك عبرة وتبصرة .

ألا إن الحق واضح لا ريب فيه والحلال بيّن والحرام بيّن وكل راع مسئول عن رعيته « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » .

الإسلام يجارب الفقر^(١)

« ١ »

جاء الإسلام الخفيف فأشرف على العالمين بدستور قوى متين يدعو إلى مكارم الأخلاق وكريم العادات ، وينظم العلاقة بين الأفراد والجماعات ، ويصف ما تعانيه الأمم من الأدواء ثم يقدم لها في يسر وسهولة أنجع الدواء .. وهذه المشكلات والأمراض الاجتماعية التي تعاني الإنسانية ويلايتها ، وتقاسى آلامها ، والتي طالما أجهد المصلحون أنفسهم في علاجها ، فنجحوا بعض النجاح حيناً ، وأخفقوا أحياناً ، قد وصف لها الإسلام الدواء الناجع الذى يضمن النجاح من أينسر سبيل وأقوم طريق .. وإنما يستشرى الدواء ويعز الدواء من التقصير والإهمال ، وعدم تطبيق مبادئ الدين ، والأخذ بما تنطوى عليه تلك المبادئ من أنظمة وأحكام وقوانين .

ولقد كان الفقر ولا يزال من المشاكل العالمية المعقدة ، وقد أدرك الإسلام مدى خطره على الأمم والشعوب فأعد لحربه العدة الكاملة ، والقوة الشاملة ، وسلك في سبيل القضاء عليه جميع الأسباب ، وأوصد دون أضراره كل الأبواب .. وواجهه بأسلحة عديدة يكفى الواحد منها لتوهين بنائه ، بل للقضاء عليه وإفناؤه .

فلقد أمر الإسلام بالزكاة وهى الركن الثالث من أركان الدين ، وجعلها حقاً معلوماً للفقراء والمساكين ، وأوجب أداءها على كل مسلم يملك النصاب

(١) ألفت هذه الكلمة بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ فى حديثين متتاليين

في النقيدين وفي الزروع والثمار وفي الإبل والبقر والغنم وفي عروض التجارة ،
وتوعد من يتمتع عن أدائها بالويل والثبور ، وأعد له عذاب السعير ، فقال تعالى
« والذين يكنزون الذهب والفضة (يعنى لا يؤدون زكاتها) ولا ينفقونها
في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يجمى عليها في نار جهنم فتكوى بها
جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »
وجعل إيتاء الزكاة من أسس الفلاح والإيمان فقال « قد أفلح المؤمنون
الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين
هم للزكاة فاعلون »

وبين الله عز وجل أن الإنفاق في سبيل الله هو التجارة الراجحة التي
لا ينمو فيها رأس المال إلى عشرة أمثال فحسب ، بل إلى سبعمائة ، بل يضاعفه
الله أضعافاً كثيرة ، وذلك حيث يقول « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل
الله كمثل حبة أنتبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف
 لمن يشاء والله واسع عليم » وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يزلان فيقول أحدهما .
اللهم أعط منفقاً خلفاً . ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً »

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً رجلين أحدهما بخيل يضمن
بمال الله على عباد الله ، والآخر متفق يعطى مما أعطاه الله فقال كما جاء في
الصحيحين « مثل البخيل والمتفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد
من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المتفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده
حتى تحفى بنانه ، وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت
كل حلقة مكانها فهو يوسّعهما فلا تتسع » ومعنى ذلك أن المنفق كلما بذل المال
في سبيل الله وسع الله عليه بزيادة رزقه ، أو بالقناعة التي تجعل القليل كثيراً

وفيرا ، وأن البخيل في ضيق من نفسه الكثرة وطبيعته الشحيحة فهو مهما زادت أمواله وكثرت أرزاقه في ضنك وشقاء وبؤس وعناء .

.. ولكي يعن الإسلام في محاربة الفقر ويتخذ كل الوسائل في سبيل القضاء عليه جعل الإحسان إلى الفقراء والمساكين كفارة للخطايا والذنوب ، وستاراً للآثام والعيوب ، فكفارة اليمين إذا ما حنث فيه الإنسان هي إطعام الفقراء والمساكين ، وفي ذلك يقول الله تعالى « لا يؤاخذكم الله بالغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلقتم واحفظوا أيمانكم . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » .

والرجل إذا ظاهر من امرأته بأن قال لها أنت على كظهر أمي حرمت عليه ولا يحل له أن يقر بها إلا بعد الكفارة ، والكفارة تكون بإطعام الفقراء والمساكين ، وقد ذكر الله ذلك في قوله « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتاسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتاسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله والكافرين عذاب أليم » .

ومن أفطر بالجماع في نهار رمضان لزمته الكفارة وهي عتق رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا .
وهكذا يكفر الإحسان إلى الفقراء الذنوب والآثام ويغسل الخطايا

والأوزار ، ولا غرو فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » .

والإسلام ليس أفاظا تجري على اللسان ، ولا أدعية تتلى في المساجد والمعابد ، وليس الإسلام ركوعا وقياما ، ولا حجا وصياما فحسب . إنما الإسلام عاطفة إنسانية ، وإحساس بالأمم الناس وآمالهم ، ومشاركة لهم في شعورهم ، وتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وأخوة كاملة تجعل الصغير بجوار الكبير ، والقوى إلى جانب الضعيف كالبنين يشد بعضهم بعضا .

ومن عجب أن يغيب عن أذهان الكثيرين من المسلمين كنه هذا الدين وحقيقته ، فتراهم يواظبون على الصلاة النافلة بله المكتوبة ، ولا يقتصرون على صوم رمضان بل يصومون أياما في كل شهر من شهور العام ، ويطوفون بالبيت العتيق كل يوم مرة أو مرتين ، وهكذا ينفذون أوامر الله مادامت لا تكلفهم شيئا من المال . فإذا جاء دور الزكاة والإحسان إلى الفقراء ، والإنفاق في سبيل الله ولوا فرارا ، بل أعرضوا عن الحق وأصرروا واستكبروا استكبارا ، وترى الرجل منهم وهو يمشى على الذهب ، ويتبختر ويختال بين الحرير والفراش الوثير ، ويبعثر الأموال لإشباع الشهوات الدنيا ، والمملكات الشيطانية الخبيثة ، ومع ذلك يرضى بالمال اليسير على البأس الفقير ، وإذا ما حاولت أن تستصرخ همته (الوانية) نحو إغاثة المعوزين وإعانة المحتاجين . وقلت له فلان فقير يستحق العطف والرعاية ، أجابك في تبجح واستهتار « رزقه على الله » « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » . وكأنما

يظن أولئك السفهاء أن الله سينزل على الفقراء مائدة من السماء ، فياللعجب !!
ويا لله لهذا المنطق السقيم والطبع الخبيث اللئيم .

ولقد خلق الله الناس درجات فجعل الغنى والفقير ، وقسم الخطوط بين عباده فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكنه مع ذلك أمر الأغنياء بالإحسان إلى الفقراء ، وحث ذوى الثراء على مساعدة المحتاجين والبؤساء ، وذلك كي ينظم العالم وتسود المحبة بين الناس ويعم الوئام والصفاء .

وقد روى على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم وإن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنيائهم . ألا وأن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً » .

وإنه لحق على الأغنياء فى كل زمان ومكان أن ينقدوا أنفسهم من الحساب العسير ومن عذاب السعير ، وأن يستجيبوا لله وللرسول ويجعلوا فى أموالهم ذلك الحق المعلوم للسائل والمحروم ، وبذلك يؤدون واجبهم نحو الدين ويساهمون فى تخفيف آلام الإنسانية « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

في حديثنا السابق بينا كيف حارب الإسلام الفقر ، ورأينا كثيراً من الأسلحة التي شمرها الدين الحنيف في وجه ذلكم العدو الألد ، وقلنا إن أمضى سلاح سدده الإسلام إلى وجه الفقر ، وشرعه لإنقاذ الناس من ويلات البؤس ومرارة الحرمان ، إنما هو الزكاة التي تجعل للفقراء حظاً مقسوماً ونصيباً معلوماً في أموال الأغنياء ، والتي هي مائدة الله في الأرض يجريها سبحانه رزقاً سائغاً » للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل .

* * *

والإسلام حينما شرع هذه الأصول الحكيمة لمعالجة أعراض المجتمع ، قد اتخذ الحيلة الكافية التي تضمن نقاء الجسم الإنساني وصفاءه ، حتى لا يتخلص من شر ليقع في شر أكبر ، أو يبرأ من داء لتحيط به أدواء ، وإلا كان التشريع ناقصاً وقائماً على أساس غير سليم ، ومعاذ الحق أن يكون ذلك من العليم الحكيم .

أجل ، فإن الإسلام يدعو القوى أن يساعد الضعيف ، ويهيب بالغنى أن يعاون الفقير . ولكنه في الوقت نفسه دين العزة ، دعا إلى احترام النفس وحفظ للإنسان كيانه ، وأشفق على المسلم من المذلة والمهانة ، وضمَّ بماء وجهه أن يراق على الرغام . ويتبدد بين أيدي الطغاة اللئام ، فلقد دعا كل إنسان إلى أن يأكل من كسب يمينه وعرق جبينه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » . وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان زكريا عليه السلام نجاراً » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتغل بالتجارة ويشغل كذلك برعى الغنم ، وقد ذكر ذلك عن نفسه وعن بعض الأنبياء فقال : « بعث موسى وهو راعي غنم ، وبعث وأنا راعي غنم أهلى بأجياد » . وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قيمة المتفق المتصدق إلى جانب المتصدق عليه وذلك ما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما « اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هي المنفقة واليد السفلى هي السائلة »

فالإسلام لا يحارب الفقر بدعوة الأغنياء المومنين إلى البر والإحسان فحسب ، ولكنه يحاربه كذلك بدعوة الفقراء إلى العمل ، ونبد البطالة والكسل ، حتى لا يكونوا عالة على المجتمع وسوساً ينخر في عظامه ، وبهذا العلاج القوي الفعال يمكن أن يُستأصل ذلك الداء العياء ، إذ تجتمع ضده قوتان ، ويهاجم من ناحيتين ، ويقع فريسة بين عدوين ، الأموال التي ينفقها الأغنياء في سبيل الله ، وكفاح الفقراء وعملهم في سبيل الحياة ، فلا يلبث الفقر أن يزعم الرحيل إلى غير مآب ، تاركاً وراءه مجتمعاً نظيفاً قوياً ينعم بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

ولقد ضرب أسلافنا الأولون رضوان الله عليهم أروع الأمثال في هذا السبيل ، فكانوا يكرهون البطالة ، ويأنفون أن يكونوا كلاً وعالة ، والتاريخ الإسلامى مشرق بسيرتهم ، عطرٌ بأنبيائهم ، ومن ذلك قصة عبد الرحمن ابن عوف المهاجرى مع سعد بن الربيع الأنصارى رضي الله عنهما فلقد آخى

رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما بعد الهجرة إلى المدينة ، وكان معنى هذه الأخوة أن يتعاون الأنصار مع المهاجرين لاتعاون الصديق مع الصديق فحسب بل تعاون الأخ الصديق مع أخيه الشقيق ، وقد أراد سعد بن الربيع أداء لواجب هذه الأخوة أن يقسم بيته وماله مع عبد الرحمن ، بل لقد أراد أن يطلق إحدى زوجتيه لتكون زوجة لعبد الرحمن ويكتفى هو بزوجة واحدة ، ولكن عبد الرحمن بن عوف وقد تربى في كنف العزة الإسلامية ، وهى تلك التى ينطوى عليها قول العزيز الحكيم « والله العزة لرسوله وللمؤمنين » أبى إلا أن يعتمد بعد الله على نفسه ، فقال لصاحبه دأنى على سوق المدينة ، ثم اشترى شيئاً يسيراً من الزبد وأهل صاحبه بعض الوقت ثم باعه وسدد ما عليه ، ثم اشترى وباع ، ثم اشترى وباع ، فلم يمض إلا وقت قليل حتى ملأ اسمه الأسماع وملاّت تجارته الأصقاع والبقاع .

وفىما يروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال ماتصنع ؟ قال : أتعبد ؟ قال : ومن يعولك ؟ قال : أخى ، قال أخوك أعبد منك . وكان أبو سليمان الداراني يقول « ليست العبادة فى الإسلام أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزها ثم تعبّد » .

وقال لقمان لابنه « يابنى ؟ استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته » وكلمة عمر بن الخطاب المشهورة الخالدة « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » وكان رضوان الله عليه يقول « مامن موضع يأتينى الموت فيه أحبّ إلىّ من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشتري » .

وإنه ليروعنا ويملاً قلوبنا أسمى وحسرة أن ترى تلسم الجيوش الجرامة من المتسولين ، وأن يسرى ذلك الوباء في البلاد الشرقية المسلمة إلى هذه الدرجة المخزية المؤلة ، والإسلام الذى حارب الفقر وقعد له كل مرصد قد حارب التسول كذلك وقطع عليه كل سبيل ، ووضع له حدوداً معلومة لو تجاوزها خرج عن دائرة الحلال ، وألحق بصاحبه الإثم والوبال ، ومن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم « إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ، رجل تحمل حمالة — يعنى ألزم نفسه بأموال يدفعها فى سبيل الإصلاح بين متخاصمين — فخلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة — يعنى آفة اجتاحت أمواله — فخلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة ، فخلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش ، فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً »

فإذا استطاع الفقراء أن يحاربوا الفقر بالجد والعمل دون أن يلجأوا إلى ذل السؤال ومرارة السؤال ، وإذا استطاع الأغنياء أن يحاربوا الفقر بالانفاق والإحسان إلى الضعفاء والمرضى والمحتاجين دون أن يلجئوهم إلى ذل السؤال ومرارة السؤال أو يدعوهم فريسة للبؤس والهوان والحرمان ، أمكن أن يتخلص المسلمون من هذا الوباء ، ويقضى على هذا الداء الغيى ، ويعيش المجتمع الإسلامى فى جو مشرق بالطمأنينة ، بعيد عن الحقد والضعفينة ، مصفى من الشوائب والمتاعب ، وإن الصبح لقريب ، وما ذلك على الله بعزيز .

(١) بين العلماء والملوك

العلم بمبادئ الإسلام ، ومعرفة ما فيه من أصول وأحكام ، وما ينطوى عليه من أسس أخلاقية ، وآداب اجتماعية ، ونظم إصلاحية إنسانية . . . ذلكم هو الهادى فى صحراء الحياة ، والقائد فى ظلمات الخيرة ، وفى مسالك الحياة الوعرة ، وهو المعين والمسلمى على حدثان الزمان ، وتنكر الأيام ! . والعلماء فى هذه الدنيا هم أساة الأرواح ، وأطباء النفوس ، وهم الذين يسمون بالعقول فيعقلون عوجها ، ويشحذون مضاءها ، ويشيرون لها السبيل إذا ما اضطرب الأمر ، وأطبقت دياجير الزيف والضلال .

ورسالتهم فى تلك الحياة هى الرسالة الإنسانية الخالدة التى لا يستقيم العالم إلا بها ، ولا يهنا إلا فى ظلالها . ومن أجل ذلك كرّمهم الله جلّ وعلا ، فقال فى محكم كتابه : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » . وقال : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

ومدحهم الرّسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأشاد بفضلهم فقال : « فَضَّلُ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ » . كما يُروى أن لقمان قال لابنه فى وصاياه : « يَا بَنِيَّ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ يَمِجُّ الْقُلُوبَ بنور الحكمة كما يَمِجُّ الْأَرْضَ بوابِلِ السَّمَاءِ » . وقال بعض الحكماء : « إِذَا مَاتَ الْعَالِمُ بَكَاهُ الْحَوْتَ فى الْمَاءِ وَالطَّيْرُ فى الْمَوَاءِ ، وَيَفْقَدُ وَجْهَهُ وَلَا يَنْسَى ذِكْرَهُ » .

وقد يقول السفهاء من الناس والفقراء فى الإدراك : إن العلماء قد أصبحوا

لا يؤدون رسالتهم ، ولا يقومون بواجبهم ، وإلا فما بال المعاصي لا تزال متفشية ؟ وما بال الأخلاق متدهورة متداعية ؟ وما بالناس عامرة ؟ وأندية القمار مليئة بالزوار ، وبؤر الفسق والفجور مكتظة بالسكان ، أهلة بالخلان والأخدان ؟ .

قد يقول بعض الناس هذا الكلام في لهجة متحدية باغية . ونحن نقول لهم : رويدكم أيها الناس وعلى رساكم . واتقوا الله في أنفسكم وفي غيركم ، ولا تؤذوا أحداً من الناس سفهاً وبغير علم ، واذكروا جيداً قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَانَتْسُبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِتَنَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا » .

إن رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أضعفُ الإيمان » .

وما دام العلماء ورجال الدين ليست لديهم سلطة تشريعية ولا تنفيذية ، فهم لا يملكون أن يغيروا منكرًا من المنكرات بأيديهم . ولا يطالبهم الدين إلا بشيء واحد هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . وهام أولاء بحمد الله في المساجد والمعابد ودور العلم ، وعلى صفحات المجلات الدينية والأدبية . بل في كل زمان ومكان منارات هادية ، ومصاييح إرشاد ، ورسل خير ورحمة للعباد ؛ فهم يتواصون بالحق ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويشكرون للمحسن إحسانه ، ويبشرونه بالخير والمغفرة والرضوان الكبير ، ويسجلون على الظالم ظلمه

وعدوانه ، وينذرونه بالويل والثبور وعذاب السعير ، وهم بذلك إنما يبرئون ذمتهم أمام الله ، وَلَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .

والملوك في هذه الدنيا هم ظلّ الله في أرضه ، وهم السادة القادة الذين يوجهون سياسة الشعوب ويدبرون شئون الأمم . وهم القلب المسيطر والرأس المدبر ، وهم العدة المحركة والقوة الدافعة ، وهم للأمة عنوان المجد والفخار ، أو عنوان العار والشنار .. وتستطيع أن تحكم على شعب من الشعوب بالإخفاق أو النجاح إذا عرفت سلوك رؤسائه واتجاهاتهم . وعلمت ميوههم وعاداتهم ، وراقبت أخلاقهم وتصرفاتهم . وقديماً قال ابن العميد : « المرء أشبه شيء بزمانه ، وصبغة كل زمان ممتخبة من سجايا سلطانه ، فلقد كان الوليد بن عبد الملك شديد الكلف بالعمارات والأبنية ، فكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات . وكان أخوه سليمان يحب الطعام والنكاح ، فكان الناس في خلافته إذا التقوا سأل بعضهم بعضاً عن الطعام والنكاح . وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة وتلاوة ، فكان الناس إذا تلاقوا في أيامه سأل بعضهم بعضاً : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ وكم تقوم من الشهر ؟ .

وبين العلماء والملوك صلة وطيدة ، ورابطة وثيقة .. فالعلماء يبلغون رسالة الله التي نزلت بها الشرائع والأديان ، يباغونها إلى الأمم والشعوب . والملوك هم الذين يراقبون تنفيذها ، فيكافئون الخالص العامل ، ويعاقبون المقصر الخامل .

وإذا كانت رسالة العلماء هي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .
 فرسالة الملوك هي حماية تلك الدعوة من عناصر الشر ، وأعاصير الضلال ،
 وحياطتها بما يمنع عنها العوادي والطواري ، ويعينها على النمو والازدهار .
 وإذا كان من الحق على العلماء أن يحملوا المشاعل ويضيئوا السبيل ،
 فمن الحق على الملوك والرؤساء أن يرغبوا الناس على ترك الظلام واتباع هذا
 النور ، ولو بذلوا في ذلك أغلى المهور ، وأفدح الأجور ، وإن الله ليزع
 بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

ولما كان في صلاح الملوك صلاح الرعية ، وفي فسادهم فساد الرعية ،
 وهلاك الأمم والشعوب ، جعل الشرع الإسلامي الملوك العادلين ، والرؤساء
 المقسطين أول السبعة الذين يظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله . وذكر النبي
 صلى الله عليه وسلم الفرق بين منزلة الإمام العادل ، والإمام الجائر يوم القيامة
 فقال : « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ ،
 وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ » .

فما أسعد الشعب المسلم إذا ما هبأ الله له العلماء العاملين الذين أشرق
 الإيمان في نفوسهم ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، ولم يفتنهم عرض الحياة
 ومتاعها القليل ، بل عرفوا واجبهم نحو الله والناس ، فأمرؤا بالمعروف ،
 ونهوا عن المنكر ، وبلغوا الأمانة التي حملوها ، يستهيئون بالأخطار والشدائد ،
 ويستعذبون في سبيل الحق كل ألم وعذاب .

وما أعظم سعادة الشعب المسلم وهناءته إذا كان على رأسه ملك صالح
 وإمام عادل ، يستجيب لدعوة العلماء فيحكم بما أنزل الله ، ويولي أمر مولاه

حيث يقول : « وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ،
وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ » .

يومئذ يبرأ المجتمع من الأمراض الخلقية الخبيثة والأهواء الاجتماعية
المدمرة ، فلا يسود فيه الزور والبهتان ، ولا يتغشاه الظلم في أى لون من
الألوان ، ولا يهتأ في جنباته الشيطان ، بل تشرق فيه المبادئ الإنسانية
السامية ، فتلوى عن الغى أعناق الجاحدين ، وتضىء القلوب بنور الإيمان
واليقين . وفق الله علماء الإسلام وملوك الإسلام إلى الخير والرشاد .

ولا تطلع كل حرافة مهيبة

الشعور بالنقص في ناحية من النواحي يدفع صاحبه دائماً إلى أن يحاول تغطية هذا النقص وستره بوسائل كثيرة ، وقد يندفع الشخص أحياناً إلى هذه المحاولة دون أن يفكر في أنها تغطي نقصاً لديه أو تستر عيباً فيه ، ومثل هذا التصرف يكون من عمل العقل الباطن كما يقول علماء النفس فعن طريقه يُصدر الإنسان أعمالاً خاصة ، ثم يحسّ بفائدتها حينما يشعر بأنها قد سترت عيوبه أو أخفت نواحي النقص فيه ، ولذا فإن معظم أولئك الذين ينسبون لأنفسهم مزايا خاصة ، ويتمعدون إيجاد المناسبات التي تُيسّر لهم الحديث عن هذه المزايا ، ويجتهدون في أن تصل هذه الأحاديث إلى القاصي والداني من الناس . هؤلاء وأمثالهم إنما يدفعهم إلى ذلك شعورهم بالنقص ، فهم يعملون من هذا الحديث عن مزاياهم المزعومة ستاراً لما يعتقدونه في أنفسهم من عجز أو ضعف أو حرمان .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن هؤلاء الذين يعمدون إلى الحلف بسبب أو من غير سبب ، ويدعمون كلامهم بالقسم واليمين دون ضرورة تلجئهم إلى هذا القسم واليمين ، هؤلاء بلا شك كأنهم يحسون أن الناس قد نفذت إلى ضمائرهم وعرفت الحقائق ، فهم يغطونها عن عيون الناس بما يثيرونه من ضباب ودخان ، وأغنى بهذا أيمانهم الكاذبة التي يخفون بها ذلك الزور والبهتان .

وإن تعويد اللسان على الحلف بالباطل مفسدة للمرء ومهلكة يهوى بها الإنسان في الدنيا ، إذ تضيع كرامته بين الناس ويفقد ثقتهم ، ويهوى بها في الآخرة أيضاً إذ يتعرض إلى مقت من الله وغضب وعذاب .

أجل فإن المرء إذا ما اعتاد الحلف وكثر ترديد القسم واليمين على لسانه لم يعد ينظر إلى ما ينطوى عليه القسم من معاني التعظيم لله والتجديد ، وما يترتب على الحنث فيه من استهانة وعبث واستهتار . بل صار يردد القسم بالله ، وكأنما هو من غير وعى وشعور ، ودون تفكير وتقدير .

ومثل هؤلاء الخلافين كثيراً ما يحنثون في أيمانهم ، ولا يقدرّون مدى الحنث وعاقبته ، ولا يفكرون في التفكير عن هذا الخطأ والعصيان . وبذلك تكثر الذنوب ، ويتراكم الصدأ على القلوب ، فلا يحس القلب بهجة الطاعة وجمالها ، ولا ترى النفس نقاء الحق وصفاءه ، بل يختلط الأمر وتُعَمَّى المسالك ، وتفتتح أبواب الشرّ والمهلك .

ولقد وصف الله هؤلاء الخالفين بالمهانة لأنهم أهانوا أنفسهم إذ عرضوها لاحتقار الناس وازدراءهم في الدنيا ، وعرضوها لعذاب الله في الآخرة ، وأمرنا الله ألا نتبعهم فيما يحلفون ، ونستمع إلى أقوالهم وما يأفكون ، وإلا حلّ بنا مقت الله وغضبه ، ومقت الناس وغضبهم .

وكم من حلاف مهين صنع الأكاذيب ، وافترى الزور والبهتان ، حتى انطلى إفكه على السفهاء من الناس فاتبعوه ، وحينئذ ضلّ سعيهم ، وسقط في أيديهم ، وتردّوا في هاوية النكال والخسران المبين . وإنا لنلاحظ على كثير من الناس أنهم يحلفون ويقسمون دون مبرّر أو مسوغ من العقل أو المنطق السليم

فترى الشخص يطلب حاجة من زميل له أو من صديق أو من أجنبي فيقول له : (بالله يا شيخ أعطني كذا) ومعنى هذه الكلمة أستحلفك بالله وربما لا يحميه المسئول إلى ما طلب ، فيكون قد أساء مع الله الأدب . وقد تسأل شخصاً : هل حصل منك كذا ؟ فيجيبك على الفور : « والله يا شيخ ما حصل » دون أن تطلب منه هذا القسم ، وتلك عادة تكاد تكون شائعة لدى الكثرة الغالبة من المسلمين .

وقد يدفع حب الدنيا أقواماً فيكثرون من الحلف بالباطل لترويج بضاعة كاسدة أو لتزوين سلعة راكدة ليشتروا بأيمانهم ثمناً قليلاً وعرضاً ضئيلاً و نراهم يفرحون بالذلة العاجلة ولا يتقذرون سوء العاقبة وشؤم المصير ، ويعطى الشيطان على بصائرهم هذا الزور والبهتان فيحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .

والمؤمن الذى يستجيب لدعوة الحق ، هو الذى لا يلجأ للحلف إلا عند الضرورة القاسية ، وإذا كان حالفاً فليحلف بالله أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته . وإذا حنث فى يمينه فقد أوجب الله عليه كفارة اليمين ، وذلك قوله تعالى : « لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، مَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١) .

(١) إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا

قد يسترسل بعض الناس في أفكار وخيالات وتملك نفوسهم هواجس ونزغات من شأنها أن تضعف العقيدة . وتزلزل اليقين والإيمان . وتباعد بين الإنسان وبين رضى الله ورحمته .

فمثلا . يقول قائل من الناس : لماذا خلقنى الله فقيرا وخلق فلانا غنيا ؟ . ولماذا من الله على فلان بالصحة والسعادة وجعل فلانا مريضا شقيا ؟ ، ولماذا يخص الله بنعمة العلم قوما ويبتلى بالجهل آخرين ؟ ويضفى على أناس من رحمته ورضوانه ويجعل غيرهم من المطرودين الملعونين ؟ . . إلى غير ذلك من سائر الوساوس والنزغات والهواجس .

ومثل هذه الأفكار السوداء المظلمة إنما هى نسيج من عمل الشيطان يطوف به على القلوب كي يحجبها عن الحق ويمنع عنها نور الإيمان ، ولقد كان الشيطان — ولا يزال — هو العدو الألد لبني آدم منذ أخرجه الله من الجنة مذموماً مدحوراً ، وغايته فى الحياة أن ينتقم لنفسه من بنى آدم فيضلهم كما ضل ويغويهم كما غوى ، ويهوى بهم إلى النار كما هوى .

والعقلاء من بنى آدم والمؤمنون الذين أنار الله بصائرهم لا تتخدعهم خيل الشيطان والأعْييه ، ولا تنطلى عليهم أكاذيبه ، ولا تغيب حقيقته عنهم مهما تسربل بالخفاء . ولبس مسوح الإخوان الأصدقاء .

فهم يرونه حينما يحاول أن يتسلل إلى نفوسهم ليزين القبيح ، ويصحح الزائف ويزيف الصحيح ، ويظهر الناقص المشوه فى مظهر السكمال والجمال .

وهم يرونه حينما يحاول أن يبذر الشرَّ بين الابن وأبيه والأخ وأخيه والصديق وصديقه ، كى يقطع الوشائج والصلات ، ويقضى على روح الألفة بين الأسر والجماعات .

وهم يفهمون أساليبه حينما يغير الحقائق فيجعل الحلم جُبْنا والتهور شجاعة ويقول عن العصبية الحمقاء إنها عزة وإباء ، وحينما يهمس فى آذان المجاهدين فى سبيل الله لا تنفروا فى الحرِّ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . وحينما يقول للمتصدقين والمتصدقين : رويدكم وحسبكم ، لا ترموا بأموالكم فى الهواء ، ولا تبعثوها فتتركوا أولادكم فقراء ، وحينما يغرى المرء بارتكاب الفواحش ويقول له : متع نفسك فالحياة فرص وأنت لا تزال فى طور الشباب ، وإذا ما كبرت سنك واقتربت من الموت فارجع إلى ربك تائباً واعمل عملاً صالحاً ، والله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات . . .

أقول إن العقلاء من المؤمنين لا يقنعهم هذا المنطق السكليل ، ولا تنطلى عليهم مثل هذه الأباطيل ، وإنما يعرفون أنها من عمل الشيطان وشؤم صنيعة فلا يستجيبون له بل يناوئونه ويحاربونه ، ويرمون به سيفه ويردُّون كيده فى نحره . فيقول مدبراً ويرتد خاسراً ويبوء بالهزيمة والنكال ، وفى هذا يقول الله جل وعلا « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » ويقول « إنه ليس له سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

فالسلاح الفاتك البتَّار الذى يستطيع المؤمن أن يصرع به الشيطان ، إنما هو التقوى والإيمان ، وذلك أن الإيمان المضىء فى قلب المسلم لا يراه الشيطان

توراً يشرق ، بل يُحسُّ به ناراً تحرق ، والتقوى التى يتزود بها المؤمن ويعددها ليوم المعاد ، لا يراها الشيطان خيراً زاد ، بل هى أمامه سُمٌّ زعاف وشوك قتاد وإن مثل الشيطان مثل الهوام والحشرات ، لا يأوى ولا يستقر إلا فى القلوب الخربة ، ولا يتغذى إلا بالأوساخ والقاذورات من الآثام والمنكرات . فمن كان قلبه نظيفاً وعامراً بالإيمان كان فى مأمنٍ من تسلُّطِ الشيطان وإغوائه ، وفى ذلك يقول الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » يعنى إن المتقين وهم الذين عمرت قلوبهم بالتقوى ، وجعلوا بينهم وبين النار وقاية إذا طاف الشيطان بنفوسهم لا يستقر فيها لأنهم يتذكرون وعيد الله للمذنبين ، ووعده للمؤمنين المتقين ، يتذكرون ذلك فإذا هم مبصرون قد أفاقوا من غفوتهم يسخرون من الشيطان الرجيم ، ويسيرون فى سبيل الحق القويم .

ألا إن الشيطان عدوٌّ مبين غادر . وخصم خائن فاجر ، يسلك لفتنتكم — أيها المسلمون — كل سبيل ، ويحارب العقيدة الراسخة فى نفوسكم بكل سلاح ، فلا تأمنوا جانبه واتخذوه عدوًّا . وحاربوه بلا رفق ولا هوادة ، وسبيل ذلك أن تؤدوا واجبك نحو الله والناس فى ضوء مبادئ الإسلام السامية وآدابه الحكيمة ، واذكروا جيداً قول الله تعالى « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَ لِيَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ السَّمِيرِ » « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخفاس الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » .

الرثوة والهدية

المال في هذه الدنيا فتنته وخطره ، والنفس البشرية تعشقه وتهيم به ، ويقودها إغراؤه وسحره ، والله عز وجل يقول في مُحْكَم كتابه : « زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ » . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول كما جاء في الصحيحين « لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابَ ، وَيَقُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » .

وَحُبُّ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ يَجِبُ لَهُ جَمْعُ الْمَالِ كِي يَضْمَنَ قَضَاءَ حَوَائِجِهِ وَتَحْقِيقَ رَغَائِبِهِ ، وَلَكِي يَرْضَى شَهْوَةَ التَّمَلُّكِ وَالْإِقْتِنَاءِ ، حَتَّى إِذَا مَا أَطْمَأَنَّ إِلَى أَنَّ الْمَالَ الَّذِي جَمَعَهُ سَيَكْفِيهِ طَوْلَ حَيَاتِهِ أَوْ يَزِيدُ عَنْ حَاجَتِهِ ، أَقْنَعَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ لِأَبْنَائِهِ وَأَبْنَاءِ أَبْنَائِهِ وَسَائِرِ أَقْرَبَائِهِ .

وهكذا يظل الإنسان سادراً في مطامعه وأهوائه حتى تدهمه المنية فتنتزعه من لجج تلسم المطامع والأهواء ، وتقوده إلى عدل القضاء بين يدي من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »

وإن الشيطان ليلمس دائماً نقطة الضعف في الإنسان فيأتيه من جانبها

ثم يحاول أن يضربه الضربة القاصمة التي تصميه وترديه ، وتفقنه عن الحق وتغويه .

وقد عرف الشيطان من ابن آدم حبه للمال فجاءه من هذه الناحية يغريه بالشرب ويزين له الضلال ، فتراه يحمل على أكل أموال الناس بالباطل ، موهاً إياه أن هذا العمل حلال مبرور ، مختلفاً في سبيل ذلك كل بهتان وزور ، ومن ذلك أن يزين الشيطان لأقوام أخذ الرشوة ، ثم يبرّرها لهم بأنها هدية ، والهدية لا شيء في أخذها ؛ بل يُسنُّ قبولها ، وقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الهدايا واعتبرها تحية طيبة مباركة .

والواقع أن الهدية شيء والرشوة شيء آخر ، والحلال بين والحرام بين ، فإذا قدّم لك إنسان سلعة أو متاعاً أو أي شيء يُقوّم بمال ، فإن كان يقصد بذلك جلب مودة أو تدعيم أخوة وإيجاد ألفة وصفاء ، فهذه هدية يُسنُّ لك أن تقبلها ثم تردها إليه في مناسبة من المناسبات بشكل آخر ، فإن أهدى إليك أرزاً مثلاً فأردّدْ إليه بقيمته أو بأكثر من قيمته إن شئت تماًراً أو عسلًا أو غير ذلك ، والله عزّ وجلّ يقول : « وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها » . ومثل هذا العمل يقوَّى رابطة الأخوة والصدقة ويُوجد روح التعاون والوفاء .

جاء في المنتهى وشرحه : « مَنْ قَصَدَ بِإِعْطَاءٍ لغيره ثَوَابَ الآخرة فقط فالمُدْفوع صدقة ، ومن قَصَدَ بِإِعْطَائِهِ إِكراماً وَتَوْدُّداً ونحوه كمحبة فالمُدْفوع هدية ، وجميع ذلك مندوب إليه ، ومحثوث عليه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » . أما إذا قدّم لك إنسان مالاً أو سلعة أو متاعاً لا يريد به جلب مودة أو تدعيم أخوة وصدقة ، وإنما يريد أن تحاييه وتقدّمه على غيره ، أو تقضى له بما لا يستحق ، فهذا هو الرشوة التي لعن الله آخذها ومُعطيها

وإذا جئت إلى إنسان كي يقضى لك مصلحة هي من صميم اختصاصه ، ولكنه أهمل فيها وتكاسل فأعطيته مالا أو ما يقوم بمال حتى يسرع في قضاء مصلحتك التي هي من واجبه وفي نطاق عمله الرسمي ، فهذا رشوة كذلك ، يلعن الله آخذها ومُعطيها !

وإذا قدّم لك إنسان مالا أو ما يُقوّم بمال لأنك رئيس أو في منصب كبير يرحى خيره ويخشى خطره ، بحيث لو أنك تترك هذا المنصب لا يقدم لك شيئا فهذا أيضا رشوة يلعن الله آخذها ومُعطيها . ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي حميد عبد الرحمن الساعدي رضي الله عنه قال : « استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللثبيّة على الصدقة ، فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي إليّ ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإني أستمعل الرجل منكم على العمل مما ولّاني الله فيأتي فيقول هذا لكم وهذا هدية أُهديت إليّ ، أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه فتأتيه هديته إن كان صادقا ، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفنّ أحدا منكم لقي الله يحمل بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى روى يياض إبطيه فقال اللهم هل بلغت »

إن الرشوة شرٌّ ووبال ، وداء عضال يُصيب الامم فيقدم الخامل ، ويؤخرُ المجدّ العامل ، ويقضى على العدل والإنصاف ، وينشر الفوضى والفساد . وهي لا تعدوان أن تكون أكلًا لأموال الناس بالباطل ، وقد نهى الله عن ذلك فقال : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » ، وتوعّد الرسول صلى الله عليه وسلم بعذاب النار كل جسم نبت من حرام ، وإن الفرق بين الرشوة والهدية واضح يدركه كل من حاسب نفسه واستفتى قلبه وإن أفشاء الناس وأفتوه ،

(١) راقبوا الله في اليتامى

الإسلام دين البرِّ والتَّراحم ، والأخوة الإسلامية تقتضى التعاون والتناصر والله عزَّ وجلَّ يقول : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضُهُ بعضاً » . وأولى الناس بالمعاونة هو الضعيف حتى يذهب ضعفه ، والذليل حتى يُجبر خاطره ، والمهيب الضعيف حتى يلتئم صدعه ، ويقوى جناحه ، ويذهب حرجه وجناحه .

واليتيم الذى فقد أباه وهو صغير . ضعيف ذليل ومهيبض كبير عصف الموت بالصرح الذى كان يأويه ، والركن الذى كان يمتعه ويحميه ، فغدا وسط الأمواج بغير شراع ، وفي معترك الوجود بلا ساعد وذراع . ولذا فإن الإسلام راعى هذه الحالة ونظر إليها نظرة عطف ورعاية ، فأوجب مساعدة اليتامى ومعاونتهم ، والعمل على ما يصلح حالهم ، وفي ذلك يقول الله عزَّ وجلَّ : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . يعنى لو شاء الله لضيق عليكم فمنعكم أن تقرّبوا مال اليتيم ولكنه أباح لكم ذلك ما دامت الغاية هى منفعة اليتامى وخيرهم ، وفي ذلك أيضا يقول الله : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » ، بل لقد أوصى الله الأغنياء ألا يأخذوا شيئا من المال نظير قيامهم على أموال اليتامى فقال تعالى : « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ »

وإن للأيام مفاجآت ، وللزمن تقلبات ، والفلك يدور بالناس ، والدنيا دول ، وإذا أصبح المرء صحيح الجسم فقد يمسي مدنفًا سقيمًا ، وإذا أمسى المرء قرير العين بأبويه ، فقد يصبح يتيمًا محرومًا ، وربما يكون المرء في يومه شقيًا شريدًا يتيمًا طريدًا ثم تشرق عليه العناية الإلهية فَيُهَيِّئُ الله له في الغد القريب حظًا سعيدًا ومستقبلًا مجيدًا .

تلكم سُنَّةُ الله في خلقه ، وذلكم شأن الدنيا ونظام الحياة ، شروق وغروب ، وعبوس وابْتِسَام ، وضحك وبكاء ، وإقبال وإدبار ، والله يُقَلِّبُ الليل والنهار . فمن الحق إذن على كل مسلم عاقل أن يراقب الله في اليتامى إذا قَدَّرَ الله له الولاية عليهم ، فينظر إليهم نظرة الأب المشفق لأبنائه في إحسان التربية والتأديب والتثقيف والتهديب . وحذار أيها المسلم أن تفتنك الدنيا وتعريك المادة فتنتطلع إلى مال اليتيم . حذار من هذا العمل المشين فإن الدهر بالناس قَلْبٌ وعينُ الله لا تنام ، وعدالته ترعى الأنام ، ولينظر الظالم الذي يأكل مال اليتيم إلى أولاده الضعاف إذا ما اختطفه الموت من بينهم وسلَّطَ الله عليهم من يظلمهم ولا يرحمهم ، ثم ليتذكر جيدًا قول الله تعالى : « وَلَيَخْشَنَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » .

إن مآذبة اللثام دائمًا لا يظفر منها اليتيم بشيء ، ومآذبة الكرام دائمًا يظفر منها اليتيم بكل شيء ، والمثل العربي يقول في تصوير الإنسان الضائع : « أضيع من الأيتام في مآذبة اللثام » . وهؤلاء الذين يسيئون لليتامى

فضلاً عن مخالفتهم للدين وآدابه هم لثامٌ فقدوا رجولتهم وإنسانيتهم ، ذلكم بأن الرجولة تأبى على الرجل الكبير أن يقف في الميدان مع ولد صغير ولو كان الولد على باطل ، فما بالكم إذا كان الرجل الكبير هو المتجنى على الحق والمتشبث بالباطل ، والإنسانية تأبى على المرء إذا كان قوياً أن يأكل حقوق الضعفاء أو يتجنى عليهم وإلا صار كالوحش في الغاب يفترس قوته ضعيفه أو كالسمك في البحار يأكل كبيره صغيره ..

ولقد كرّم الإسلام اليتيم ، وبالغ في العناية بأمره حتى لقد جعل زجره بعنف ومن غير سبب مشروع آية على التكذيب بيوم الدين ، فقال تعالى « رأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم » .

وإذا كان هذا فيمن يزجر اليتيم بغير سبب مشروع ، فما ظنكم بمن يضربه أو يسرق ماله أو ينهبه ؟ لا شك أنه يوق نفسه ويرديها في الهاوية وما أدراك ما هيه ؟ نار حامية ..

وليس بغريب بعد هذا أن يعد الرسول صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم الذي بحسن الكفالة ويؤدى حقوقها والتزاماتها ، ليس بغريب أن يعده الرسول بأن يكون أقرب الناس إليه يوم القيامة . فقد روى البخارى عن سهل ابن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما » .

وسبيل المستضعفين الذين مسهم الضرُّ وأصابتهم البأساء أن يكافحوا ظلم الظالمين بقدر ما يستطيعون مستظلين بالصبر الجميل ومعتمدين بحمل الله المتين

(١) في ظلال الصبر الجميل

في ظلال الصبر الجميل وبين أفيائه الوارفة يعيش أولئك المؤمنون الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لا تمسهم البأساء ، ولا يلفحهم هجير الشتاء ، ولا تؤذيهم متاعب الدنيا وآلامها ، بل يستوى لديهم ليل الحياة ونهارها ، وسراؤها وضراؤها ، وغناها وفقرها ، ولا غرو فإن نور الإيمان يجعل ليل الحياة نهاراً ، وبشاشة الإيمان تحيل الضراء إلى سراء ، والقناعة التي يغرسها الإيمان في النفوس تُسوَّى بين الفقر والغنى ، إذ ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس .

ولقد جعل الله هذه الظلال الوارفة جنة المؤمنين في الدنيا . يفرون إليها حينما تفاجئهم الحياة بما تحمله من متاعب وآلام ، وعنت وإرهاق ومخاوف ، فيجدون فيها من الخير والمتاع ما يبدل خوفهم أمناً ، وألمهم أملاً ، وما يجعل من متاعبهم راحة وسعادة وطمأنينة ، ثم يظلون ينعمون بهذه السعادة الروحية والطمأنينة النفسية حتى تنطوى حياتهم ، ويحىء أجلهم ، وإذا ذلك ينتقلون من ظلال الصبر الجميل ، إلى ظل دائم ظليل ، في جنة عالية قطوفها دانية ، فيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولقد قلت لنفسى — بعد تفكير طويل — عجباً لأولئك الذين يتعاملون عن الصبر وظلاله ، ويتجاهلونه إلى هذا الحد المعيب ! إنهم يسعون إلى حثفهم

بظلفهم ، ويلقون بأنفسهم — طوعية واختياراً — في هجير لافح ، وأتون مستعر من متاعب الحياة وآلامها ، وما مثلهم إلا كالأنعام بل هم أضل ، وإنهم ليعيدون إلى أذهاننا قول القائل :

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظأ والماء فوق ظهورها محمول
وقالت لى النفس — بعد طول انتظار — رويدك يا صاحبي وعلى رسلك
فما للأعشى والمرأة ؟ وما للمقعد والمرقاة ؟ كما يقولون . إن أولئك الذين يفرون
من الصبر ، ويتشبثون باليأس والجزع لا يرون تلك الظلال ، ولا يدركون
ما يكتنفها من روعة وجلال ، وإن الشيطان ليستضعف طائفة من الناس فيضع
العراقيل في طريقهم إلى الصبر ، ويغطي بصائرهم فلا يرون السبيل إلى الخير
ومن هنا تنوعت الأنظار ، واختلفت الأهواء ، وكان أصحاب الشمال وأصحاب
اليمين « فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » .

وقالت لى النفس أيضاً : رويدك يا صاحبي ، أأست تعلم أن لون السائل
من لون الإباء ؟ وأن اللبن الأبيض يحتجب بياضه إذا ما وضع في زجاجة
سوداء ؟ وكذلك الصبر الجميل أمام ضعفاء الإيمان ، يحجبه الشيطان بالوساوس
والنزغات والهواجس ، فلا يرى على حقيقته النقية الصافية ، ومن هنا يجزع
ضعيف الإيمان لأنه يرى الصبر أمام عينيه محوطاً بالغبار والأكدار ، فينفر منه
ويبتعد عنه . وكما قال القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينسکر الفم طعم الماء من سقم
أو كما قال الآخر :

ومن يك ذا فم مُمرٍّ مريض يجد مُمرًّا به الماء الزلّالا

ومهمة المصلحين من الهداة والمرشدين هي أن يكشفوا الأعطية عن القلوب ، ويزيلوا العشاوة عن العيون حتى يتميز الخبيث من الطيب ، ويظهر الزائف من الصحيح ، ويُرى الخير على حقيقته ، والشرّ على حقيقته ، ولن يتمّ لهم ذلك إلا إذا جعلوا الدين أساساً ونبراساً ، ونفذوا به إلى القلوب في يسر وسهولة ، وأحاطوه في نفوس الناس بمظاهر العناية والرعاية ، وبكلّ ما يمنع عنه عوادي الضعف والوهن ، حينئذ ، وحينئذ فحسب يتذوق أولئك الناس لذة الصبر وجماله . فتهون أمامهم الصعاب ، ويعذب بين أيديهم العذاب . فإن أصابتهم النعماء بما فيها من فتنة وإغراء ، لاذوا بالصبر الجميل ، فكبحوا جماح النفس عن الشهوات الخبيثة ، واللذات الآثمة ، وقاوموا شحّ النفس بالإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وبذل الحق المعلوم للسائل والمحروم . وإن أصابتهم اليأساء والضرّاء بما فيها من وبل وشقاء لاذوا أيضاً بالصبر الجميل ، واتمسوا الراحة والسعادة تحت ظلاله الوارفة مطمئنين إلى قوله تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقوله سبحانه : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » . وإلى قوله صلى الله عليه وسلم — كما ثبت في الصحيحين — عن أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما : « ما يصيبُ المُسْلِمُ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَ يَشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » .

وإن متاع الحياة وآلامها كثيرة لا تختص بفقر دون غنى ، بل إنها
تقتحم على الأغنياء قصورهم وحصونهم قبل أن تمر على الفقراء في أكوأخهم ،
والصبر هو الملاذ الآمن والحصن المنيع الذى يخفف من غلواء الآلام والمتاعب
فتسكن النفس لديه وتتقى به شر المزاج والمعاطب ، وحينئذ يقضى المرء حياته
الأولى فى رضى واطمئنان ، وفى الآخرة يجزى الجزاء الأوفى ، ويحظى من الله
بالرحمة والغفران

.. ومن الحق على المسلمين فى كل وقت وحين أن يكون لهم فى رسول
الله أسوة حسنة وعبرة وتبصرة ، فلقد ابتلى الرسول الأكرم صلى الله عليه
وسلم طفلاً وصبيّاً وشاباً وكهلاً وشيخاً ، واصطلحت عليه الآلام والمتاعب منذ
نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره فلم تحضد الآلام والمتاعب من شوكته
ولا أوهنت من قوته وعزيمته .. ، ذلكم لأنه آوى إلى ركن شديد من
الإيمان واطمأن إلى قوله سبحانه وتعالى « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن
عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم
محسنون » .

.. ولقد سبقكم إخوانكم المسلمون الأولون إلى ظلال الصبر الوارفة
فنالوا الحسنين ، جنة الدنيا يحفها الرضى والقناعة من فقرائهم ، والشكر
والإحسان من أغنيائهم ، وجنة الآخرة يحفها فضل الله ورحمته وغفرانه .

حينما ألقى بلال بن رباح فى الرمضاء ووضعت الأحجار الحماة بالشمس
على صدره ، وقيل له ستظل هكذا حتى تكفر بمحمد وتؤمن باللات ، فى هذه
الحنة القاسية والآلام المضنية لجأ بلال إلى الصبر الجميل فأحس برد الراحة
ونعيم السعادة ، وصاح بقلب ملى بالإيمان .. أحدٌ أحدٌ ..

وحينما تتابعتم الكوارث على المسلمين في مبدأ ظهور الإسلام ، وضائق عليهم الأرض بما رحبت ولم يجدوا ملجأ من الله إلا إليه جاء خباب بن الأرت مع نفر من إخوانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون ما بهم من ألم وعناء ، ومشقة وبلاء ، ويقولون يا رسول الله ، ألا تدعونا ؟ ألا تستنصر لنا ؟ في وسط هذا الألم اللافح المرمض ، وجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنظار أصحابه إلى الصبر ، وبين لهم ما يترتب عليه من ظفر ونصر . . . وقال — كما جاء في البخارى — : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه والله لئيمَنَ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

وبعد ، فما أحوَج الإنسان وهو يتنقل في صحراء الحياة المليئة بالمفاجآت إلى أن يعتصم بالصبر الجميل ويأوى إلى ظله الورف الظليل ، وحينئذ يكتب الله له الخير والسلامة في دنياه وآخرته ، « والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

(١) أثر الصوم في إصلاح المجتمع

يستجيب كثير من المسلمين في أداء فريضة الصوم إلى عاطفتهم الدينية وعاداتهم القديمة التي ورثوها عن الآباء والأجداد دون أن يفكروا لماذا فرض صوم هذا الشهر ، شهر رمضان من كل عام ؟ وما هي الآثار التي يستفيد بها المجتمع من هذا التكليف الذي أمر الله به المؤمنين حيث يقول (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات) وحيث يقول (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) .

وقليل من الناس من يصوم رمضان لأنه قد فكر في أثر الصوم والحكمة التي أرادها الله منه واقنع بعد ذلك التفكير فلبى نداء العقل والعاطفة معا . واستجاب بعد صوت الضمير لصوت المنطق القويم السليم . . . !! والنتيجة الحتمية لذلك أن تصبح الغالبية من المسلمين وهي تنفذ أوامر الدين تنفيذا لا يعتمد على التفكير والتأمل ولا يستند إلى الاقتناع بالحجة والدليل ولكنهم يصومون لأن الله أمرهم بالصيام ويصومون لأنهم ورثوا تلك العادة عن أسلافهم من قديم الزمان ، وأغلب الظن أن يكون هذا الاتجاه وما يماثله في العبادات الأخرى هو السبب في أن المسلمين ينفذون القانون السماوي في ظاهره لا في جوهرة ويتعلقون منه بالجسم لا بالروح وكثيرا ما يتجهون إلى الحواشي واللفائف دون الهدف والصميم .

فالدين لم يأمر بالإمساك عن الطعام رغبة في تجويع الناس وحرمانهم

ولكن لتقوية الإرادة في نفوس الناس حتى يكبحوا جماح نفوسهم عن الشهوات المرديات والمعاصي المهلكات . وإذن فكل صائم يمسك عن الطعام ولا يمسك عن الفسوق والعصيان والذنوب والآثام ، أو يجوع نفسه لكي يملأ بطنه من الحرام بنهب أو سرقة أو تدليس أو بآية وسيلة من وسائل الإجرام ، أو يمتنع عن الأكل والشرب ولكنه يطلق لسانه في أعراض الناس بالتشهير بهم أو في قول الزور والبهتان ، كل من كان على هذا الوضع المشين من الصائمين فصيامه مرود عليه ، ولا يستفيد من هذا النصب والتعب شيئا ، ولا يكسب من صيامه إلا الجوع والعطش والحرمان ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » ويقول « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

والله عز وجل قد فرض الصوم لصلاح الأبدان وتقوية الأجسام وذلك أن المعدة وهي بيت الداء لها طاقة محدودة وهي — بلا شك — تكل من كثرة العمل واستمراره ولو ظلت تعمل طول العام فلا بد أن يحل بها التعب ، بل قد يلحقها ويسرع إليها التلف والعطب ، فكان صوم رمضان فترة راحة واستجمام فيها صلاحها ونشاطها ، وفي ذلك صلاح الجسم وقوته ونشاطه . ولكن كثيرا من الناس ينفذون الصوم بطريقة تجعله مضیعة للصحة ومهلكة للأجسام فهم يجعلون من هذا الشهر معرضا لألوان الأطعمة الشبهية ، ويفتنون في الطرق المغرية على الإسراف في هذا السبيل ، وحسبك أن تراقب واحدا من الطبقة المترفة الغنية بل من الطبقة المتوسطة في أيام رمضان ، فانك ستراه بلا شك ينام وعقله مشغول بالطعام ، حتى إذا ما استيقظ صرف كل تفكيره في إعداد الطعام وتنسيقه ، واتخذ كل الوسائل لتجهيز مأدبة فخمة فيها كل

المغريات على الامتلاء والتخمة فإذا ما جاء موعد الإفطار هجم على الطعام هجوم الوحش الغادر أو الأسد القاهر على الفريسة الذليلة المستكينة ، واتهم الغذاء بجشع وقرم حتى يمتلئ بطنه بالأكل والماء وقد لا يدع مكانا للهواء ، فإذا ما جاءت وجبة السحور عاد إلى الطعام من جديد بلا رفق ولا هواة حتى يكتظ بطنه وتذتفخ أمعاؤه وهكذا يقضى ثلاثين ليلة يثقل فيها المعدة بالطعام الدسم ويتعجبها بالأكل الكثير فيعرض نفسه للأسقام والعلل ، وبذلك تنعكس الآية ويضيع الغرض ، وتذهب الحكمة التشريعية للصيام أدراج الرياح . . .

والله عز وجل قد فرض الصيام ليشعر الغنى بمرارة الجوع فيعطف على الفقراء البائسين والمساكين المعوزين ، ولكن كثيراً من الأغنياء يصومون دون أن يشعروا بمرارة الجوع ، فهم يحاولون أن يغيروا سنة الله حيث يقلبون الليل نهائراً والنهار ليلاً ، ويجعلون الليل للسعى والعمل ، والنهار للنوم والحمول والكسل ويقضون ليلهم ساهرين يأكلون ويتمتعون ، ونهارهم نائمين لا يغدون ولا يروحون بل لا يتحركون . . . وتكون النتيجة أن الأغنياء يصومون رمضان ولا يحسون بألم الجوع والحرمان ، وتظل قلوبهم على قسوتها وشدها فلا يعطون محروماً ولا ييسرون على مُعسر ، وبذا تضيع الحكمة المنشودة وتذهب الفائدة المرجوة من الصيام ، وليس اللوم في ذلك على الإسلام ، إنما اللوم على المسلمين الذين لا يفهمون روح الإسلام وأهداف الإسلام !!

ولقد جعل الله الصوم مدرسة أخلاقية يتعلم الناس فيها الدروس النافعة ويتلقون في رحابها المبادئ الهادية ، ولقد نجحت هذه المدرسة كل النجاح حينما أخلص الأساتذة والتلاميذ ، وتعاونوا على البر والتقوى ولم يتعاونوا على الإثم والعدوان ، فكان في الأمة الإسلامية هداة مرشدون يعلمون الناس مبادئ

الإسلام نظرياً وعملياً ، فتفيض الحكمة من ألسنتهم ويشع الإيمان من قلوبهم وتنطق به حواسهم ومشاعرهم خلقاً طيباً وإخلاصاً نقيّاً وصلاحاً خالصاً واستقامة نادرة المثال . . . وكان لهؤلاء الهداة المرشدين تلاميذ ومريدون ، يسمعون فيعون ويعون فينتفعون ويؤمرون فينفذون ، فكانوا كالأرض النقية يصيبها الغيث فيرويهما ويحييهما وينبت بها العشب الكثير والزرع البهيج النضير . نعم لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المرشد الأول والأستاذ الأكبر للأمة الإسلامية يصوم رمضان فيضرب للناس أروع الأمثال في تحقيق حكمة مشروعية الصيام ، وكان أصحابه وأصفياءه يسировن على آثاره ويستضيئون بأنواره فيصومون ويحققون حكمة الصيام ، إذ تصوم ألسنتهم عن اللغو والهذيان والكذب والبهتان وتصوم جوارحهم عن الآثام والعيوب والمعاصي والذنوب ، وكانوا يحققون حكمة الصيام فلا يتخمون المعدة بأثقال الطعام حتى لا تتعرض أجسامهم للعلل والأبسقام ، ولا غرو فهم يعلمون أن الحياة ليست غاية حتى تنفق في المتاع الفاني القليل ، والعرض الضئيل الهزيل ، وإنما هي وسيلة لغاية دائمة ومتاع لا يزول ، ومن أجل ذلك فقد زهدوا في الدنيا واحتقروا لذاتها وطالما كان يصوم بعضهم الأيام المتتابة على الأسودين التمر والماء فإن ظفر يوماً باللبن مع التمر عد ذلك فضلاً كبيراً وأشفق على نفسه أن يسأله ربه يوم القيامة عن هذا الترف والنعيم .

إن أثر الصوم في إصلاح المجتمع لا يكمل إلا إذا فهم المسلمون حقيقة الصوم كما فهمها أسلافهم .

فإذا أمكن للمسلمين أن ينتزعوا أنفسهم من هذا التيار المادى الجارف الذى
دهمهم فغطى بل طغى على عقولهم وأفكارهم ، استطاعت حينئذ مبادئ
الإسلام أن تصل إلى قلوبهم على حقيقتها النقية الصافية ويومئذ نرى
للصوم أثره السريع فى إصلاح المجتمع الإسلامى ونجاحه ، ويومئذ يكون
شهر رمضان هو الفرصة السنوية التى تغسل الذنوب والعيوب ، وتبهيء للمجتمع
الحياة الرشيدة السعيدة . .

فليفهم المسلمون الصوم على حقيقته حتى يظهر أثره فى نفوسهم وأعمالهم ،
وحينئذ يبنى المجتمع الصالح الذى يتجه للخير ويهدف للسكال وتسعد به الأمم
والأجيال .

الأغاني والموسيقى

في الحياة الدنيا متاع مضنية ، وآلام قاسية ، لا تصيب البائس الفقير في كوخه الحقير فحسب ، ولكنها تمتد إلى الغنى المترف في قصره الشامخ وفراشه الوثير ، ولو أسلم الناس أنفسهم لهذه المتاع والآلام ولم يقاوموا تيارها العنيف الجارف لأظلمت الدنيا في وجوههم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت وأحاط بهم اليأس والتقنوط من كل جانب . !

فمن الحق إذ ذاك على كل إنسان يعرف الحياة بما تنطوى عليه من خير وشر ، وحلو ومر ، وما يكتنفها من يسر وعسر ، ونعيم وبؤس ، أن يتزود لهجيرها ولأوائها بما يقيه ، ويستعين على وحشتها وظلامها بما يؤنسه ويسليه ولا بد له حينئذ أن يسلك السبيل المشروع الذي تقره الشرائع والقوانين ، ولا يتعارض في كثير أو قليل مع مبادئ الأخلاق والدين . !

وإن الإنسان ليجد في متاع الحياة المشروع ، ولذائدها المباحة ، ما يغنيه عن التردى في الرذيلة ، والوقوع في مهاوى الفسوق والعصيان ، ولا غرو فإن الله لم يخلق الإنسان للهم والكدر ، والضيق والبؤس والشقاء فحسب ، بل الله أرحم بعباده من أن يحرم عليهم كل بهجة الحياة وزينتها ، وهو القائل في محكم كتابه : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نُفَصِّلُ

(١) وردت أسئلة كثيرة إلى الإذاعة السعودية عن حكم سماع الأغاني والموسيقى فطلبت إلى الإذاعة الإجابة على هذه الأسئلة فكانت هذه الكلمة . وقد أُلقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٦٩ هـ

الآيات لقوم يعلمون . قُلْ إنما حَرَّمَ رَبِّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغيرِ الحقِّ وأن تُشْرِكوا بالله ما لم يُنزل به سُلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

ولقد قلت لنفسى متسائلاً بعد قراءة هاتين الآيتين الكريمتين : هل الأغاني والموسيقى من زينة الله التي أخرج لعباده ؟ ومهما يكن من شيء فهل أباحها الإسلام أو حرَّمها ؟ وماذا عسى أن يعترئها من الآراء والأحكام ؟ .

إن النفس بطبيعتها تألف الصوت الجميل وتعشقه ، وتنفر من الصوت القبيح وتمقته ، وإن الإنسان ليلذ له أن يستمتع إلى سجع الحمام وتغريد الطيور ويؤمله ويؤذيه أن يصل إلى سمعه عواء الكلب أو نهيق الحير . . . وحتى الصبي في مهده . . . تتشوّق نفسه للصوت الطيب فينصرف عن البكاء ؛ بل ربما ترك ندى أمّه وهو جائع مؤثراً لذة السماع على لذة الرضاع ، ولعلكم تعجبون كثيراً إذا علمتم أن الأسماك في البحار يشجها الصوت الجميل فتجتمع نحوه ، وربما وقعت بذلك في شرك الصائد وحبائله ، وقد رأيت بنفسى جماعة من الصيادين في بحيرة المنزلّة ، وهي بحيرة مصرية ، يسرون يقاربهم في جوف الليل وهم يصفرون صغيراً شجياً ، ويطرقون صفائح معهم بدقات منتظمة ، فسألت عن السبب في ذلك ؟ فعلمت أن السمك يطرب لذلك الصوت فيجتمع نحوه حتى يقع في الحبائل التي ينصبونها لصيده ، وإن الإبل مع بلادة طبعها لتتأثر بالغناء والحداء تأثراً يجعلها تستخف الأحمال الثقيلة ، وتستقصر المسافات الطويلة فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال ، ثم سمعت بعد ذلك صوت الحادي أو ترنيمة الشادي تمد أعناقها وتضعى إليه ناصبة آذانها وتستولى عليها النشوة فتضرب في البید ، ويعود إليها النشاط من جديد ؛ بل ربما يلذ لها

السماع فتسير الليالى الطوال حتى يلحقها الموت أو الهلاك وهى ذاهلة عن نفسها بما تسمع من ألحان وما يرتل لها من أنعام وأوزان . ومن ذلك ما يروى عن محمد ابن داود الدينورى قال : كنت بالبرية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباء فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ورأيت رجلاً قد ماتت بين يدى البيت وقد بقى منها جمل واحد وهو ناحل ذابل كأنما ينزع روحه فقال لى الغلام أنت ضيف ولك حق فتشفع فىّ إلى مولاي فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر ولعله يحل القيد عني . قال : فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع فى هذا العبد ! فقال إن هذا العبد أفقرنى وأهلك جميع مالى ، فقلت ماذا فعل ؟ فقال إنه له صوتاً حسناً وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحملها أحمالاً ثقلها ، وكان يحذبها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنى كنت ضيفى فكرامتك قد وهبته لك ، قال فأحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمرته أن يحذب على جمل يستقى الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهى فما أظن أنى سمعت صوتاً أطيب منه

وقد يخطئ كثير من الناس فى فهم الحقيقة التى تدل عليها كلمة الأغانى فهم حينما يسمعون تلك الكلمة تنصرف نفوسهم إلى ذلك اللهو والعبث الذى يذاع بين الحين والحين من الأدب الرخيص والشعر المالح الخليع ، والألحان الفاجرة المستهترة ، وإذا صح أن هذا المعنى هو ما يفهم من كلمة الأغانى فهى حينئذ شرٌّ ووبال ، وفى سماعها أو إسماعها خسران ونكال وإثم ضلال ، لأنها تغرى بالفساد وتهيج كوامن الشر ، وتبعث الفتنة من مرقدتها ، كما هو الشأن فى كثير من الأغانى المصرية والشامية والعراقية وبعض الأغانى الحجازية التى تصف الحبوب ووصاله ، أو صده ودلاله ، أو حسنه وجماله ، والتى لا يكاد الإنسان يعثر فيها على هدف سليم وغاية كريمة .

ولكن ليست كلمة الأغاني مقصورة على مثل هذا اللهو والعبث ،
أو محصورة في ألوان الخلاعة والمجون والاستهتار ، فهناك شعر جميل وأدب رفيع
يفيض بالحكمة والمعاني الكريمة ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ويهيب نواحي
الخير والفضائل ويغري بالشجاعة والإقدام ، وينمي في النشأ روح الوطنية ،
ويذكر الأبناء والأحفاد بمجد الآباء والأجداد ، ويصف المشاهد المقدسة
كالكعبة ومقام إبراهيم وزمزم والخطيم ، إلى غير ذلك من كل ما يدعو
إلى الخير والبر والمعروف ومثل هذا النوع من الشعر لا بأس بسماعه بل لا أبالغ
إذا ما قلت إنه أحياناً يجب سماعه سواء أكان مجرد إنشادٍ وترتيل أو كان
بصوت طيب وتلحين جميل .

وإنه لطيب لنا أن نذكر في هذا المجال ما قاله الإمام الشافعي ، فقيه
مايكشف النقاب عن وجه الحقيقة ويجليها واضحة للناظرين .

قال الشافعي رحمه الله : « الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح ومهما
جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده أيضاً مع الألحان . وكيف
ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال عليه
السلام : « إن من الشعر لحكمة » وروى في الصحيحين عن عائشة رضي الله
عنها أنها قالت لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر
وبلال رضي الله عنهما وكان بها وباء فقلت يا أبتى كيف تجدك ؟ ويا بلال
كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
وكان بلال إذا أقبلت عنه الحمى يرفع عقيرته ويتغنى ويقول :

ألا ليت شعري هل أبين ليلة بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » .

ولما أنشد النابغة شعره لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال له عليه السلام « لا يفضض الله فاك » . وفي صحيح مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت والرسول يقول : « هيه . هيه » ثم قال : « إن كاد في شعره ليُسلم » ، وعن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له في السفر وأن أنجشة كان يحدو بالنساء والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير » ولم يزل الحذاء وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضى الله عنهم وما هى إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره بل ربما كانوا يلتسمون ذلك تارة لتجريك الجمال ، وتارة للتلذذ والمتاع .

هذا مما يتعلق بسماع الأغاني من الرجال أما صوت المرأة فإذا كان في غير الغناء فليس بعورة مادام التحدث معها لغاية شريفة وقد ثبت أن النساء كن يتحدثن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور دينهن . وما زال النساء في زمن الصحابة رضى الله عنهم يكلمن الرجال في الاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك ، أما سماع الغناء من المرأة فهو حرام لأنه يوقظ الفتنة النائمة ويهيج الغريزة الجنسية العاشمة ، فالسر في تحريم الغناء من المرأة هو اتقاء الفتنة حتى لو فرض أن صوت بعض النساء من غير غناء يؤدي إلى الوقوع في الفتنة حرم سماع كلامها ، ومهما قيل من أن بعض الناس لا يفتتن بسماع الأغاني من النساء فهو شذوذ لا يقاس عليه ولا ينظر إليه .

أما الموسيقى فيختلف سماعها باختلاف الآلة التي ينبعث منها الصوت. فموسيقى الأوتار حرام سماعها لأنها شعار أهل الشراب وسماعها يذكر بالخطر ويؤدي للوقوع في شربها، وذلك أن مجالس الأنس تبدأ عادة بموسيقى الأوتار ثم تنتهى بالخمير وما يتصل بها من آثام وأوزار، فاقترضت حكمة الشارع تحريم هذا النوع من الموسيقى لأنه عادة مقدمة للشراب، كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة للجماع، «وما من حرام إلا وله حريم يطيف به وحكم الحرمة ينسحب عليه ليسكون حى للحرام ووقاية له وحظاراً مانعاً حوله» وأما ما عدا ذلك من أنواع الموسيقى فلا يحرم سماعها وذلك كشاهين الرعاة وشاهين الحجيج وشاهين الطبالين أو بعبارة أخرى كل آلة يخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب والمجون.

وأما الطبول فيحرم منها الدف ذو الصلاصل والصنج لأنه عادة أهل الشراب، ويحرم أيضاً سماع الكوبة وهى طبل مستطيل دقيق الوسط، واسع الطرفين، وهى المعروفة فى اللغة العامية المصرية والحجازية بـ «الدربكة»، لأن ضررها من عادة الخنثين، وما عدا ذلك كطبل الحجيج والغزاة، إلى غير ذلك فلا حرمة فى سماعه.

وبعد فقد تبين الرشد من الغي، والحلال من الحرام وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع للشبهات وقع فى الحرام».

والمؤمن المخلص، هو الذى لا ينحدر إلى الشهوات، بل هو الذى لا يحوم حول الشبهات حتى يكون فى مأمن من تسلط الشيطان وإغوائه، وحتى يستبرأ لدينه وعرضه.

(١) التقاليد في المهور

سنحدث الآن عن بعض العيوب الاجتماعية في الجزيرة العربية . .
وسمكون الحديث عن عيب قديم توارثه الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد ،
حتى غدا من العادات الأصيلة التي ينساق الناس إليها دون أن يفكروا
على ضوء من العقل والمنطق السليم فيما يعقبها من آثار ، وما يترتب عليها
من أضرار وأخطار .. وليس من العجيب أن يخطئ الناس فإن كل بني آدم
خطاء ، ولكن العجب كل العجب أن يؤمن الإنسان بخطئه ثم يتأدى فيه ،
ويلتمس المآذير الكاذبة لنفسه ولمشاركه ، ومن أجل ذلك فإنني أطالبكم
— أيها السادة — ألا تكونوا من أولئك السفهاء ، وأهيب بكم أن تبرأوا
من كل عيب ، وعلى الأخص إذا ما استبان لكم ضرره وخطره ، فليس
من العقل ولا من الدين أن يتنكب الإنسان طريق الخير والنور ، ويرغم
نفسه على التخبط في الظلام ، والتدنس بالشرور والآثام .

أجل سنتكلم اليوم عن التقاليد في المهور وما يترتب عليه من أضرار بالغة
في حياة الأفراد والجماعات .. والتقاليد في كل شيء قبيح مذموم لأن فيه
مجاوزة للحد ، وخروجاً عن القصد وبعداً عن التوسط والاعتدال .. والمهور
التي يدفعها الرجال للنساء إنما هي قيمة فرضها الشرع على الرجل في مقابل
استمتاعه بزوجه من الطريق العادي المألوف ، وليست ثمناً يشتري به الرجل
زوجه كما يزعم بعض الجهال الغافلين ، فيتشبثون بمهر ثقيل ويتحكمون
في الأزواج هذا التحكم المشين . ولذا فإن هذا المهر إذا ما تم على أساسه

عقد النكاح لا يسمح للرجل إلا هذه الصلة الزوجية فحسب ، وتمق بعد ذلك للمرأة حريتها ، ولسكنها حرية مقيدة بقوله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وبقوله صلوات الله وسلامه عليه « إن لكم عليهن — يعنى على النساء — ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وألا يأتين بفاحشة مبينة » . وتكون للرجل حريته ولسكنها حرية مقيدة بقوله تعالى « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً » وبقوله صلوات الله وسلامه عليه « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله »

وإنكم لترون معى أن الغالبية من الناس هنا يتغالون فى المهور إلى درجة التحكم الممقوت الذى يفعله البائع إذا ما علم أن ساعته ليس لها نظير بين السلع . وأسلم نفسه إلى تيار جارف من الحرص والجشع ، وكثيراً ما تؤدى مثل هذه التصرفات إلى إحجام الشبان عن الزواج سنين عدداً هى زهرة العمر وربيع الحياة ، وتبعاً لذلك يحرم الفتيات من الزواج سنين عدداً هى كذلك زهرة العمر وربيع الحياة ، وبسبب هذا الحرمان الذى يقاسيه الفتيات والفتيان يقع البلاء الكبير والشر المستطير ، أما ماهو هذا البلاء الكبير والشر المستطير؟؟ فينبغى فى هذا المقام أن بغنى التلميح عن التصريح ، وتسكى الإشارة عن العبارة .

وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ألا لاتغالوا فى صدقة النساء فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبي الله صلى الله عليه وسلم ، ما علمت رسول الله نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتى عشرة أوقية . ويروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان صداق النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه خمسمائة درهم — يعنى ما يوازى مائتى ريال سعودى — أما أقل الصداق فقد اختلفوا فيه . فقال الشافعى وأحمد إنه لا تقدير لأقله بل كل ما جاز أن يكون مبيعاً أو تمناً جاز أن يكون صداقاً . وقال مالك وأبو حنيفة يقدر الصداق بنصاب السرقة وهو عند مالك ثلاثة دراهم وعند أبى حنيفة عشرة دراهم ، وثبت فى الصحيحين أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله قد وهبت نفسى لك ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد النظر فيها وصوبه ، ثم طأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ، فلما رأته المرأة أنه لم يقض فيها بشيء جلست ، فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها ، فقال هل عندك من شيء ؟ فقال لا والله يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر ولو خاتماً من حديد ، فذهب ثم رجع فقال لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ، ولكن إزارى هذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء ، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل معك شيء من القرآن ؟ قال نعم سورة كذا وسورة كذا ، وأخذ يعدد الشؤرا التى يحفظها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد زوجتكها بما معك من القرآن ..

ومن ذلك يتجلى لكم أن الآباء أو أولياء النكاح يسرفون على أنفسهم حينما يتغالون فى المهور ويتحكمون فى الأزواج إلى هذه الدرجة البغيضة الممقوتة ،

ولست مبالغاً ولا متجنياً إذا ما قلت إنهم سيفناهم نصيب من الآثام التي يتحملها
الفتيان والفتيات نتيجة لأمثال هذه التصرفات . .

وقد يقول بعض الناس في تبرير مثل هذه التصرفات إن الغلاء مستحکم
والزوجة تحتاج إلى أثاث وفراش وزينة ، وهذه مطالب تثقل الكاهل
وتسكف باهظ النفقات وتلجئ القائم على أمر الزوجة إلى المطالبة بصدّق
كبير ، بل إنها لتلجئه إلى الشطط والإسراف ، وهو فيما يرى عين العدل
والإنصاف . .

والواقع أن المهر إنما هو في مقابلة التمتع بالزوجة ، وأما الأثاث فينبغي أن
يكون من شأن الزوج وحده ، وهو — إذ ذاك — يكون حراً في منزله ،
يملؤه — إن شاء — بالحرير والفرّاش الوثير ، أو يضع فيه المتاع القليل والأثاث
التافه اليسير .

نعم لقد خلق الله الغنى والفقير وجعل الناس درجات ، والمترفون من الناس
لا يحسون بهذا التقاليد في المهور . بل لا يسمى بالنسبة إليهم تغالياً ، ولكن
الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة وهم الجهرة من الشعب يؤذيهم بلا شك مثل
هذا التقاليد ، فإن مصاريف الزواج ليست هي المهر فحسب ، بل هناك تكاليف
وأثقال كثيرة تؤود المقدم على الزواج ، وهي ما يلتزم به الزوج عادة مما يسمى
بـ (الشبكة) ومن حفلة الزفاف ومن العادات الأخرى الثقيلة ، ومن التوسعة
التي لا بد منها في الأيام الأولى من الزواج ، وتسلككم لعمر الله أكلاف باهظة
وأحمال ثقيلة لا يعرفها إلا من ذاق مرارتها واكتوى بنارها .

وقد يكون من الخير أن نذكر شيئاً من العادات المصرية في هذا السبيل ،
وهي عادات فيما اعتقد أدنى من الرحمة وأقرب إلى التيسير .

ففي مصر يستطيع الرجل من الطبقة الفقيرة وهي عامة الشعب وغالبية أن يتزوج بمهر تتراوح قيمته بين مائة ريال وثلاثمائة ريال سعودي ، ويستطيع الرجل من الطبقة المتوسطة أن يتزوج بما تتراوح قيمته بين أربعائة ريال وألف ريال سعودي ، ولا يزيد عن هذه القيمة عادة إلا المترفون من الشعب ، وهم بالقياس إلى غيرهم عدد ضئيل ، ونفر قليل .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجه ، إلا تفعلوا تكن فتنه في الأرض وفساد كبير » ، ومعنى ذلك أن المهر لا ينبغي أن يكون موضع مساومة أو عقبة في إتمام الصلة الزوجية ما دام الخلق قويمًا والدين سليماً ، فلا تغتروا إذن بالمظاهر الكاذبة ولا تردوا من يقدم على الزواج منكم متى استبان لكم خلقه ودينه ، واطمأنتم إلى صلاحيته لتكوين الأسرة والقيام بما تتطلبه من أعباء ، ولا تعلقوا إتمام الزواج — إذ ذاك — على مهر قليل أو كثير ،

ومن الحق عليكم — أيها الأزواج — أن تنظروا من جانبكم إلى ذات الدين والخلق دون أن تعلقوا أهمية كبيرة على جهاز أو أثاث ، ودون أن تعبأوا بفراش أو ريش ، وحينئذ توزع الأعباء بين الطرفين ، وتكون الرحمة متبادلة من الجانبين تحت ظلال وارفة من المودة والتعاون والإخاء .

حقوق الزوجية ^(١)

الزوجان الذكور والأنثى هما كل شيء في هذا الكون ، عليهما تُبنى الحياة ، وبهما يصلح العالم ويكمل نظامه وعمرانه ، فكلأهما متمم لصاحبه ، ونقص واحد منهما ينقص الدنيا ويودي بها ويعرضها للفناء والانهيار . .

وقد كرّم الله الإنسان بالعقل ، وجعل الرابطة بين الزوجين من بنى آدم لاتقوم على اتصال غريزي واندفاع شهواني فحسب كاهو الشأن لدى العجاوات والهوام والحشرات ، ولكنها تقوم على مبادئ سليمة ، وتهدف إلى غاية كريمة هي إسعاد الزوجين ليكون المنزل الصالح ، ثم لتكون الأسرة الصالحة ، ثم ليكون المجتمع الصالح الرشيد ، وإلى ذلك يشير الله سبحانه وتعالى بقوله :
« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

وهذه المبادئ التي تقوم عليها الرابطة بين الزوجين ، إنما هي الحقوق والواجبات التي يلتزم بها كلا الطرفين ، وهي تلك التي دعا إليها الإسلام تمكيناً للمودة وإتماماً للألفة والوئام . . .



وحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وهي مع ذلك واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، والتقصير فيها مجلبة لسخط الله وغضبه وفي ذلك مافيه من الويل والهلاك ، ومجلبة لسخط الزوج وغضبه وفي ذلك تشتيت الشمل وانفصام العرى وتفريق الجماعة واندلاع الشر والفتنة .

(١) أُلقيت بالإذاعة السعودية سنة ١٣٧٠ هـ في ثلاثة أحاديث متتالية .

وإن الرجل الذى يغدو إلى عمله فى الصباح كاداً كادحاً ، ويمكث الساعات الطويلة فى العناء المرهق والمتاعب المضنية لهو أحوج الناس حينما يروح إلى بيته أن يجده مشرقاً بالسعادة والنعيم ، وأن يتنفس فيه ملء رثيته من الهدوء والصفاء ، والمرأة المؤمنة العاقلة هى التى تهيب لزوجها حياة منزلية سعيدة ، فإذا اعترضتها المشاكل والعقبات من الجارات والصديقات أحسنت التصرف فخلت تلك المشاكل بنفسها دون أن تنبى زوجها بما يعكر صفوه وينغص خاطره ، ولا تلجأ إلى إخبار زوجها إلا فى الأمر الجليل والشأن الخطير .

وكم من أزواج إذا جاءوا من عملهم لا يفادرون بيموتهم إلا فى القليل النادر ، ذلكم بأنهم يجدون الهناء فى منازلهم ، وينعمون فيها بالراحة الكاملة والسعادة الشاملة .

وكم من أزواج لا يقر لهم قرار فى بيموتهم لأنهم يجدون فيها الكرب الآخذ بالخنق ، والجحيم الذى لا يطاق ، ولا يتذوقون طعم الراحة إلا أثناء نوم الزوجة أو مرضها ، وهم لذلك يناون عن منازلهم فى معظم أوقاتهم ، فراراً من جهل الزوجة وطيشها ، وبعداً عن سفهها وحمقها .

ولعل هذا التباين فى طبائع الزوجات والتغاير فى أخلاقهن هو الذى دفع بعض الأزواج ممن يهناون بالحياة الزوجية إلى أن يقول :

إن النساء رياحين خلقت لنا وكلنا يشتهى شم الرياحين
وهو الذى دفع بعض الأزواج ممن يشقون بالحياة الزوجية إلى أن يخالفه
فى رأيه فيقول :

إن النساء شياطين خلقت لنا نعوذ بالله من كيد الشياطين
والزوجة المؤمنة لا تكون لزوجها كالشيطان ، بل تكون له كالروح والريحان

ومن حق الزوج على الزوجة أن ترضى وتقتنع بما يهيئه الله لزوجها في الحياة من حظ ورزق مقسوم ، وألا تنظر إلى غيرها من النساء اللاتي من الله عليهن بأزواج ذوى نعمة ويسار ، فإن الله سبحانه قد قسم الحظوظ والأرزاق بين عباده ، وهو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وقد زوج الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة ابنته من على بن أبى طالب كرم الله وجهه ولم يكن ذا سعة من المال ، وكانت فاطمة رضى الله عنها تعاني ألم الحاجة وشظف العيش ، وتقاسى مرارة الحرمان فلا يزيدا ذلك كله إلا الحب لزوجها والإجلال ، والطاعة والامثال .

وهؤلاء هن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين ، ما شعبن من خبز شعير يومين متتاليين منذ قدم الرسول أصوات الله وسلامه عليه المدينة إلى أن قبض إلى جوار ربه كما ثبت في الصحيحين ، بل لقد كان يمر عليهن الشهر يتلوه الشهر ما توقد في بيوتهن نار ، ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين أيضا عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : « والله يا ابن أختي إن كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، قلت يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار وكانت لهم منايح ، وكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا »

ومن حق الزوج على الزوجة أن تكون أمينة بكل ما تدل عليه كلمة الأمانة من معانٍ وما تستلزمه من واجبات ، أمينة على أمواله فلا تضع قرشا

واحداً في غير موضعه ، ولا تضيّع قرشا وحدا من مال زوجها بغير إذنه ورضاه وكلُّ زوجة تستطيع أن تقدر طاقة زوجها المالية ، فلا تكلفه بما لا يستطيع ، ولا تطالبه بما يزيد عن حاجتها ويخرج عن طاقته .

فزوجة الرجل الفقير أو الموظف الصغير لا يصح أن تطلب من زوجها أن يلبسها أثواب الحرير ، أو يملأ بيتها بالفراش الوثير ، أو يحملها بالحلى الفاخر كما هو الشأن عند زوجات الموظفين الكبار والأغنياء ذوى النعمة واليسار بل إن زوجات الأغنياء ذوى النعمة والثراء لا ينبغي لهن أن يبعثرن الأموال ذات اليمين وذات الشمال في الكماليات أو فيما هو أقل من الكماليات بل لا بدّ من التوسط والاعتدال . فإن الدهر بالناس قلب . إن دام يوما لشخص ففي غدٍ يتقلب . والله عز وجل يقول : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ومن واجب الزوجة نحو زوجها أن تكون أمينة كذلك على أبنائه الصغار تقوم أعوجاجهم ، وتحقق رغباتهم بقدر ما تستطيع على أساس من العقل والحكمة ، وتراقب سلوكهم وتصرفاتهم وتأخذ بأيديهم إلى الخلق الكريم والأدب القويم ، وإذا كان للزوج أبناء صغار من غير الزوجة وهم الذين توفيت أمهم أو فارقت زوجها لسبب من الأسباب فإذا يمكن أن يكون مصيرهم ؟ وما هو واجب الزوجة الجديدة نحوهم ؟

إن الزوجة الجديدة — غالبا — تضع أمام عينها أن هؤلاء أبناء ضررتها فتؤذيهم من غير سبب ، وتعاديتهم عداا يدعو إلى العجب . ! فكلامهم العادى في نظرها ثقيل . وحركاتهم الطبيعية تراها حركات شيطانية ، ثم هي لا تسوى بين ولدها وولد زوجها في المعاملة ، بل كثيرا ما يكون لابنها المغنم وعلى ولد زوجها المغرم ، وقد تطعم ولدها في السر ما لذ وطاب ، وتبقى لولد

زوجها النفاية والفضلات والأعقاب . والويل كل الويل للولد المسكين إذا اشتكى لأبيه .. تكال له التهم ، وتنسج حوله الأباطيل ، ويرمى بالسفه والجنون وفي مثل هذه الأحوال يجب أن يكون الزوج يقظاً كامل الانتباه لما يدور في منزله من لؤم الزوجات وكيد الزوجات . . أما الدين فيقول لأمثال هؤلاء الزوجات الباغيات : رويدكنَّ واتقين الله في الضعفاء الصغار ، واذكرن بطش القاهر الجبار « يوم يَقْرُ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » . واذكرن جيداً قول الله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كَمَا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئاً ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » .

ومن واجب الزوجة نحو زوجها أن تكون أمينة كذلك على أقواله وأخباره ، وأن تكون صديراً يحفظ السرَّ ويحيطه بالسكتمان والستر ، حتى يتيسر لزوجها قضاء مآربه ، ولا يتمكن منه أعداؤه .

ومن واجب الزوجة أولاً وآخراً ، أن تحافظ على عرضها أن يتلوث أو يتدنس ، حتى تكون ممن قال الله عنهم : « فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ » . وحتى يتحقق فيها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خيرُ النساءِ امرأةٌ إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك » . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إذا صلَّت المرأةُ خمسها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلي الجنة من أى الأبواب شئت » .

والإسلام الذى جعل للزوج هذه الحقوق . قد رسم له حدوداً معلومة ومنهاجاً وسطاً يحفظ عليه كرامته وهيبته ، وهو فى الوقت نفسه يحفظ للمرأة حقها فى الحياة الهادئة والعيشة الراضية . فالزوجة فى نظر الإسلام ليست آلة مسخرة يحقق الرجل بها رغبة ، أو يقضى منها وطراً ومأرباً فحسب ، ولكنها شريكة الرجل وعماداً أساسياً فى إقامة المنزل ، وهى المدرسة الأولى التى يواجهها الطفل منذ فجر حياته فتغذيه بأخلاقها ، وترضعه من طابعها وعاداتها ، وواجب الزوج أن يشعرها بكيانها وخطرها ، ويبين لها قيمة رسالتها وعظم مسؤوليتها ، ويمنحها من الحرية ما يسمح به الدين الحنيف ، ولا يتنافى مع العقل والمنطق السليم .

وإذا كان الإسلام قد جعل الرجال قوامين على النساء بما فَضَّلَ اللهُ بعضَهُنَّ على بعض وبما أَنْفَقُوا من أموالهم . فإن هذه القيامة والأفضلية من جانب الرجل لا تبيح له أن يتحكم فى المرأة كما يتحكم المالك فى السلمة والمتاع . بل لقد قيَّدَ الإسلام الرجل بقيود ، ورسم لهم المنهاج ، وأوضح الحدود ، ومن ذلك ما روى عن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتسكوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » . ومعنى لا تقبح ، لا تخاطبها بالكلام القبيح ، ولا تهجر إلا فى البيت . أى المضاجعة ، أما الكلام فلا تهجرها فيه .

وقد بيَّنَ الله عزَّ وجلَّ للأزواج أن يتدرَّجا مع زوجاتهم فى التأديب والتهذيب إذا ما علموا من الزوجة الشوز والعصيان ، فيبدأ الزوج أولاً بوعظ الزوجة ، مبيناً لها عاقبة سفهها وطيشها ، وما يترتب على ذلك من تشتيت الشمل

وتفريق الوحدة وضياع الأبناء ، ويضرب لها من الأمثلة والعبر ما يجعلها تلمس بيديها عاقبة الطيش والغرور ، فإذا لم تفد هذه فعليه أن يلجأ إلى هجرانها في المضجع ، ثم إلى الضرب غير المبرح ، فإن أفاد . وإلا كان الفراق عن رضى واتفاق ، وفي ذلك يقول تعالى « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً ، وإن خفتم شقاقاً بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً » .

ولقد كرر الرسول صلى الله عليه وسلم التوصية بالنساء وشدد على الرجال فى ذلك لما يعلم من أن تكوين الرجل واستعداداته وتجاربه فى الحياة تجعله أقدر على الصبر والاحتمال من المرأة ، فقال صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه . « استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » . وجاء فى الصحيحين « المرأة كالضلع إن أقمته كسرتها ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن المرأة خلقت من ضلع إن يستقيم لك على طريقه ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج . وإن ذهبت تقيمه كسرتها ، وكسرها طلاقها »

ومن تلسم الأحاديث الشريفة يتجلى لنا أن واجب الزوج أن يكون أرحب صدراً ، وأوسع أفقا من الزوجة ، وأنه لا ينبغي أن يحاسب الزوجة على هفواتها الصغيرة وزلاتها اليسيرة ، بل يتغاضى عن مثل هذه الزلات والهفوات حتى يعيش فى جو هادئ بعيد عن الآلام والمنغصات .

وفي حجة الوداع قال صلى الله عليه وسلم في خطبته الجامعة « إنما النساء عوانٍ عندكم — أسيرات — أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاستوصوا بهن خيرا ، ألا إن لكم على نساءكم حقاً ولنساءكم عليكم حقاً ، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذنن في بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في طعامهن وكسوتهن » .

ألا إن الخير بالخير والبادئ أكرم ، والشر بالشر والبادئ أظلم ، وعلى الزوج قبل أن يحاسب زوجته على تقصيرها في حقوقه وإيصالها لواجباته أن يحاسب نفسه ، أيقوم هو نحو زوجته بما تطلب منه أم لا يفعل ؟ . . أينفق أمواله على زوجته وأولاده أم يضيعها في اللهو واللعب والإثم والعصيان ؟ أهو عف اللسان كامل الأخلاق أم هو غير مفتون وسفيه طائش ؟ ، أيقوم بواجب الزوجية كي يعف زوجته عن الحرام ويعصمها من نزغات الشيطان أم هو منساق للشهوات المحرمة مبدد للطاقة الجنسية في سبيل غير مشروع ؟ ، وإذا كان له زوجتان فهل هو يعدل بينهما في المسكن والمطعم والملبس ويقسم الليالي بالسوية . أو هو يميل بكيلين ويسير بوجهين وضميرين ، وذمتين ؟ . فإذا استوثق من نفسه أنه مستقيم على الطريقة ، سالك سبيل الخير والرشاد ، فليحاسب زوجته بعد ذلك كما يشاء ، ونحن على ثقة ويقين من أن الزوج إذا كان حسن الأخلاق كريم الخصال حميد الفعال ، فإنه سيجد زوجته منساقة بطبعها إلى ما يرضيه ، مؤدية له كل حقوقه ، وحينئذ يسعد الزوجان في حياتهما وتشرق عليهما الطمأنينة والصفاء . . فيتكون المنزل الصالح . ثم الأسرة الصالحة . ثم المجتمع الصالح الرشيد .

(١) وَصِيَا الْإِنْسَانِ بِوَالِدَيْهِ

يرتبط الناس في هذه الحياة بروابط كثيرة تختلف قرباً وبعداً ، وتنوع قوة وضعفاً ، على قدر الاختلاف في المصالح ، وتنوع الأغراض والمآرب ولكن هناك رابطة قوية لا تخضع للأغراض والغايات ، ولا تؤثر فيها المطامع والشهوات ، وأعني بها تلك الرابطة بين الآباء والأبناء . وذلك لأنها تعتمد على حنان طبيعي أوجده الله في النفوس البشرية وركبه في الطباع الإنسانية ، بل إنه حنان موجود في جميع الكائنات الحية ، يُحسه الإنسان ويلمسه في الوحش الضاري حين يفيء إلى أشباله الصغار فيضمها إليه ، ويمنحها كل ماله ويمنع عنها العوادي والطواريء ، وربما بذل نفسه وضحي بروحه دفاعاً عنها ، وفداءً لها ويحسه الإنسان ويلمسه إذا ما رأى الطائر يطعم أفراده ويسقيها ، ويحافظ عليها ويحميها ، وإذا تعرض لها أحد بسوء فزع وصاح ، وبكائها بالأنين والنواح ! ! . . !

ولقد عبر الشاعر العربي عن عاطفة الأب نحو أبنائه أصدق تعبير ، وصورها أروع تصوير ، حيث يقول :

لولا بُنْيَاتُ كَرْزَبِ الْمَقْطَا جَمْعَنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرِبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتُ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنُنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبْتَ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَمَتَتْ عَيْنِي عَنِ الْغَمْضِ
وهذه المحبة القوية التي جعلها الله في قلوب الأبوين هي التي تيسر سبيل

تربية الآباء للأبناء ، وتعينهم على ما تقتضيه تلك التربية من المشقات والأعباء وما من أحد فينا إلا وقد رأى بعينه ، ولمس بيديه ما يعانیه أبواه في تربيته منذ يخرج إلى هذه الحياة طفلاً وليداً إلى أن يكمل نموه ويشتد ساعده ، ويصبح رجلاً له شأنه وخطره .

بيد أن محبة الأبوين لولدهما أقوى بكثير من محبة الولد لأبويه ، وقد سئل بعض الحكماء لماذا نحب أبناءنا أكثر من حب أبنائنا لنا ؟ فأجاب لأن أبناءنا جزء منا ، ولسنا جزءاً من أبنائنا ، وقد لا حظ الشرع الإسلامى هذه الناحية فترك الآباء لعاطفتهم الطبيعية القوية ، وكرر التوصية بالوالدين على الأبناء إرشاداً لهم إلى أداء الواجب ، والاعتراف بالجميل ، ورعاية الإنصاف والوفاء ، فقال تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » وقال « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنأ على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » وثبت في الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت النبي صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال الصلاة على وقتها : قلت ثم أى ؟ قال : بر الوالدين قلت ثم أى ؟ قال الجهاد في سبيل الله . »

وذكر القرآن الكريم بر الوالدين بعد عبادة الله وتوحيده فقال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » . وكأن الحكمة في ذلك ، أنه إذا كان الله سبحانه وتعالى هو السبب الأول والأساسى لوجود الإنسان ، فإن الوالدين هما السبب المباشر في ذلك ، وإذا كان الله هو صاحب

الفضل الأول على الإنسان ، فلولوالدين أكبر فضل وأعظم نعمة بعد فضل الله ونعمته ، وناهيك بالأم تسهر لينام طفلها ، وتتعب ليستريح ، وتنفق صحتها وسعادتها ، لكي توفر الصحة والسعادة لأبنائها ، وتهيء لهم أسباب الراحة والاطمئنان . وحسبكم بالأب يغالب الأحداث الجسم ، ويصارع الليالي والأيام ، وكل ذلك في سبيل مصلحة أبنائه ، ومن أجل توفير الخير والسعادة لهم فالإنسان مدين بحياته لوالديه ، ومهما بذل في سبيلهما من خير وبرٍّ فلن يؤدّي الواجب نحوها ، ولن يقوم بشكرها على ما أسديا إليه من معروف وجميل ، إلا من طريق واحد بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « لن يجزى ولد والده حتى يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه » .

وإذا كان من حق الوالد أن يأمر ولده أو يجره ، أو يهذبه ويؤدبه ، فإن من الواجب على الولد أن يسمع ويطيع ما دام ذلك في الحد المرسوم ، والسبيل المشروع . أما إذا تجاوز الوالدان الحدود ، وتخطيا الحواجز والسدود ، « فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا » . يعنى لا تطعهما فيما يغضب الله ، ومع ذلك لا تسىء إليهما بل عاملهما بالبر والإحسان مهما اختلفت العقائد والأديان .

ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : « قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ — أَيْ طَامِعَةٌ فِيمَا عِنْدِي — أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قَالَ : نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ » .

وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم برّ الوالدين على الهجرة والجهاد في سبيل الله مادام الوالدان في حاجة إلى مساعدة ولديها . ومن ذلك ما جاء في الصحيحين

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : « أقبل رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى فقال : هل لك من والديك أحد حتى ؟ قال نعم ؛ بل كلاهما ، قال فمبتغى الأجر من الله تعالى ؟ قال نعم ، قال فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما »

والبرّ بالوالدين خلق كريم يُسعد الإنسان لا فى الآخرة فحسب ، بل فى الدنيا كذلك ، ولا غرو فإن من يُكرم والديه يُعرف بين الناس بالوفاء والاعتراف بالجميل ، وإذ ذاك يثق الناس به ، ويتبادلون معه المودة والإخاء ، ويصيرون أعوانه فى البأساء والضراء .

أما إذا كان عاقاً لوالديه فإن الناس ينفرون منه ولا يثقون به ، ويقولون فيما بينهم : من لاخير فيه لأبويه وهما أقرب الناس إليه فلاخير فيه لأحد من الناس ، وبذلك تنعدم الثقة به ، ويقضى حياته طريداً شريداً بعيداً عن الله بعيداً عن الناس ، قريباً من النار .

وبإكرام الوالدين وبرّهما يُفرّج الله الكروب ، ويكشف النوازل والخطوب . ومن ذلك حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحطت صخرة على فم ذلك الغار فسدت عليه ، فقد لجأوا إلى الله فى تلك الحنة القاسية ، وتقدموا بين يديه بصالح أعمالهم . فقال أولهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً (أى لا أقدم عليهما فى الغبوق وهو شرب العشى) ، فنأى بى طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما (أى فلم أرجع إليهما) حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فسكرتهما أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبت — والقذح على يدى — أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، والصبية يتضاغون عند قدحى ،

فاستيقظا فشربا غبوقهما .. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج
عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فأخذت الصخرة تنزحزح رويداً رويداً
حتى إذا ما أتم الآخرا ن ذِكر ما قدّمناه من العمل الصالح تم انفراجها فخرجوا
يمشون ...

ولا يقتصر إكرام الوالدين على أيام حياتهما فحسب ؛ بل يمتد إلى ما بعد
ذلك ، فلقد ذكر أبو داود عن أبي أُسَيْدٍ رضى الله عنه قال : بينا نحن جلوس
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سَلَمَةَ فقال :
يا رسول الله : هل بقي من بر أبوي شيء أبرئهما به بعد موتهما ؟ فقال نعم :
الصلاة عليهما (أى الدعاء لهما) ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ،
وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقيهما .
فَلَيْسَتْ تَجِبُ الْإِنْسَانُ لِلرَّحْمَنِ ، وَلِيَنْفِذَ وَصِيَّةَ الدِّينِ بِإِكْرَامِ الْوَالِدَيْنِ ،
فَذَلِكَ سَبِيلُ الْحَسَنِينَ ، وَأَسَاسُ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ .

(١) مِنْ أَبِ الأَبْنَاءِ

« ١ »

حضرات السادة الأجلاء :

في حفل المسامرات الافتتاحي من هذا العام ، كان لي الشرف التحدث إليكم فأعلنت فرحي واعتباطي أن أتيح لي ولإخواني شرف المساهمة في تدعيم النهضة العلمية بهذه البلاد ، وهو شرف يعتز به كل مسلم وكل عربي لأنه يعبر عن أخوة كريمة بين شعبين شقيقين ، ومملكتين عظيمتين ، هما : المملكة العربية السعودية ، والمملكة المصرية ، وهي أخوة بحمد الله قد دعمها الإسلام ، وغذتها العروبة ، وقوتها روابط الجوار والصدقة .
ولله قول أبي تمام :

إن يفترق ماء الوصال فمأؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يختلف نسبٌ يؤلف بيننا أدبٌ أقناه مقامَ الوالد

وهأنذا أقف اليوم في حفل المسامرات الختامي ، لكي أؤكد لكم هذه المعاني الكريمة ، وأرددها فخوراً ، مغتبطاً مسروراً ، ولا غرو ، فإن هذه البلاد المقدسة الكريمة قد أسدت إلى الإنسانية الأيادي البيضاء ، وقدمت إلى العالم أعظم الآلاء ، فمنها انبثق النور المبين الذي أخرج العالم من ظلمات الغي والضلال والجهالة ، وأخذ بيدهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم . وإذا فهي صاحبة الفضل الأول ، وهي البائدة بالجميل ، وكل مسلم من سائر

(١) ألفت هذه الكلمة في ندوة المسامرات الأدبية بمكة وذلك في الحفل الختامي

لعام ١٣٦٩ هـ .

الأقطار الإسلامية يُجَاهِد في سبيل النهضة بهذه البلاد ليس له فضل ولا يستحق شيئاً من الشكر لأنه يؤدي ديناً عليه ، ويردّ جميلاً أسدى إليه . وكما قيل : الخير بالخير والبادى أكرم ، ونحن وإياكم كما قال القائل :
كالبحر يطره السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه

أيها السادة :

إذا كان أحب شيء إلى الآباء أن يقدموا النصيح إلى أبنائهم فإنى أتقدم إلى أبنائنا الطلاب بنصيحة مخلصه راجياً أن تجد منهم قلوباً واعية .

أيها الأبناء الأعزاء :

إن العظمة في الحياة ليست بالأمر الهين الميسور لكل إنسان ، بل لابد لمن يطلبها أن يتزوّد لها بالرأى السديد ، والعقل الرشيد ، والجد والعمل . وإن العظيم لا يمكن أن يبنى مجده من الأوهام أو من أحجار ملقاة في الرغام . إنما يبنى العظيم مجده من النجوم ، ويمضى إلى غايته صعداً فوق أشلاء المتعاب والمصاعب .

وإن الناس في هذه الحياة رجالان : رجل يفهم من الحياة عيشاً رغداً وممتعاً شهيماً ، وسنين متطاولة فحسب ، فهو يعبر الحياة ساجداً في ظلام الأنانية محاطاً بغلاف الأثرة الكثيف دائراً حول نفسه لا يلوى على شيء إلا على منفعه ومآربه ، ومثل هذا الرجل لا خير في حياته ، بل هو شر ووبال ، ولن تستفيد منه الإنسانية إلا الخسران والفكال .

ورجل يفهم من الحياة أن يكون حياً في أذهان الناس بجليل أعماله وكريم فعاله ، ذاهباً في السنين بشخصيته لا بشخصه ، تتحدث الدنيا بما أسدى إليها من معروف ، وما قدم لها من خير . ومثل هذا الرجل هو الذي

فهم الحياة وعرف أسرارها ، وهو لا يموت أبداً ، بل يظل في الحياة خالداً
بأثره ، باقياً بمجده وخطره .

ولله قول شوقى رحمه الله :

مَنْ سَرَّهُ أَلَا يَمُوتَ ، فبالعلا خلد الرِّجال ، وبالفعل الفابه
مات مَنْ حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه
فمن الحق عليكم أيها الأبناء أن تهتدوا إلى الغاية الكريمة والخلق
القوميم ، واعلموا أن العلم بدون خلق كشجر من غير ثمر ، واجعلوا شعاركم
الإخلاص . . . الإخلاص لله ، وللوطن ، وللملك ، وليكن لكم مثل أعلى
تجعلونه أمامكم نبراساً يضيء ، ومنازة تهدي وترشد .

ذلكم هو حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل ،
وفقه الله وسدد خطاه ، وكتب على يديه الخير للدين والوطن .

ولا يسعني في ختام هذه الكلمة إلا أن أذكر بالشكر والتقدير فضيلة
الأستاذ الكبير مدير المعارف الشيخ محمد بن مانع ، كما أشكر من كل قلبي
الأستاذ الجليل السيد أحمد العربي مدير مدرسة تحضير البعثات ، والأستاذ
الفاضل عبد الله البغدادي رئيس جماعة المسامرات الأدبية ، ووكيل مدير
البعثات ، وأسأل الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه .

مَنْ أَبِىَ لِأَبْنَائِهِ^(١)

« ٢ »

أيها الأبناء الأعزاء :

تمر الأيام وتقتابع ، وتدور رحى الزمن بالناس فيغير الله الأحوال بين يأس ورجاء ، وعبوس وصفاء ، وتدمير وتعمير ، وعلو وانحدار ، وذبول وازدهار ، والله يقلب الليل والنهار

ومن الحق على كل إنسان يعبر الحياة بما تنطوى عليه من خير وشر ومن نعمى وبؤس أن يتخذ من الدين ميزاناً ويجعله أساساً ومعواناً ، وهو بهذا يستطيع أن يصارع الفن ، ويقهر الأحداث والحزن ، ويتجنب الشرور والآثام ما ظهر منها وما بطن ، وهو بهذا وحده يستطيع أن يسير في العواصف الهوجاء والأعاصير الحقاء ، ويتقى الأمواج الصاخبة والتيارات العنيفة المتضاربة نسكى يصل إلى شاطئ النجاة في هدوء وأمان وسلام .

ولا شك أن لكل إنسان رسالة في الحياة يطالبه الدين بأدائها . وكلما أداها كاملة شاملة لاح نجم سعاده واتسعت آفاقه ، وصاحبه اليمين والسادات والتوفيق ، وفي ذلك يقول الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) ويقول : (وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

(١) أذيعت من الإذاعة السعودية بمناسبة العام الدراسي الجديد ١٣٧٠ هـ ونشرتها جريدة البلاد السعودية في ذلك الحين .

ورسالة الطالب — أيها الأبناء الأعزاء — إنما تتركز في العلم والخلق فهما أمضى سلاح تستطيعون أن تنالوا به من برائن الأيام، وهما خير معوان لكم على ما ترجون في الحياة من آمال كبار جسام . وسبيلكم إلى العلم — أيها الأبناء — ليست مفروشة بالحرير والأثاث الوثير، ولا مخفوفة بالأشجار الباسقة والأزهار المونقة . ولكنها سبيل مفروشة بالأشواك والمتاعب، مخفوفة بالآلام والمصاعب، عاطلة من البهجة والزينة، معرضة للأنواء وتقلبات الأجواء، فلا بد لمن يرتادها ويسلكها أن يصبر نفسه على بعد الشقة ومرارة الطريق وأن يأوى إلى ظل ظليل من الصبر الجميل، والخلق الكريم والدين القويم، حتى يصل إلى الهدف المقصود والأمل المنشود، وحتى تتحقق له الأمانى العذبة الحلوة، والغاية المرجوة . وقد يما قال الشاعر العربي :

ومن أراد العلاء عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطرا
لا بد للشهد من نحل يمنعه لا يجتنى النفع من لم يحمل الضرا

أيها الأبناء الأعزاء :

إن طلب العلم ضرورة لازمة لصلاح الإنسان في دنياه وآخرته . فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم . وقد قال بعض الحكماء : (اطلب العلم، فإن كنت فقيراً كان العلم لك مالاً، وإن كنت غنياً كان العلم لك جمالاً، وإن كنت يتيماً كان العلم لك أباً وخالاً) . والله عز وجل يقول : « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ، وَلَا الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، وَلَا الظِّلَّ وَلَا الْحَرُورَ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ » . ويقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »

والعلم — أيها الأبناء — لا وطن له ، بل هو حق مشاع كلماء والهواء .
والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها ، ويسعى لتحصيلها مهما أنفق في
سبيلها من وقت وصحة ومال ، والله عز وجل قد حث على الهجرة في طلب العلم
فقال : « فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وإذا كان الشرع يحث الناس على الهجرة في طلب العلم على الرغم مما في
الهجرة من عنت ومشقة وبعد عن الأوطان ، ومفارقة للأهل والإخوان ،
فما بالكم أيها الأبناء وقد هاجر العلم إليكم ، وسعى الأساتذة المعلمون حتى وقفوا
بين يديكم ، دون أن تكلفوا مشقة الهجرة ومرارة الاغتراب ، ودون أن
تنأى بكم الديار ، ويبعد بينكم وبين أهلكم المزار ؟ لاشك أن السبيل إلى
الخير مهياة لكم وممهدة ، والطريق إلى النجاح واضحة معبدة ، ولا عذر لمقصر
منكم في طلب العلم بعد هذا التيسير ، لا عذر له أمام الدين والضمير .

ولقد كانت الجزيرة العربية منذ القدم حاملة اللواء . وباعثة السنى
والسناء ، منها انبثق النور المبين فعمَّ العالمين . وفي بطحائها الجرداء وصخورها
الصَّماء تفجرت عيون العلم والمعرفة ، فأحيت القلوب وروت النفوس ، وكانت
أساس الخير والبركة للناس أجمعين .

ولكن الزمن الدوار القهار قد جعل مغرباً لهذا النهار ، فتأخرت الجزيرة
العربية عن سبقها ، وسبقها بلاد كانت تسير من ورائها ، وشاء فضل الله
ورحمته ألا يطول هذا الليل فأعقبه عما قليل فجر باسم وإصباح جميل ، وكان
انبثاق هذا الفجر من جبين الرجل المصلح التقى أسد الجزيرة وعاهلها المفدى
جلالة الملك المعظم عبد العزيز آل سعود نصره الله وأطال عمره .

أجل . إن البلاد العربية لتدين في هذه النهضة المباركة الشاملة ، وعلى
الأخصّ تلك النهضة العلمية إلى مليكم العظيم ، وإلى الدوحة السعودية
العريقة ، وإلى إخلاص القائمين بأمور التعليم على اختلاف درجاتهم .
وعلى رأسهم مدير المعارف الموقر فضيلة الشيخ محمد بن مانع . الرجل
الخالص المجاهد الذي حمل مصباح العلم المعرفة وسار بإرشاد مليكه العظيم يقود
الحملة التعليمية الفاجحة ضد الجهالة حتى دخل العلم ظافراً في كل قرية ومكان الله
له من النمو والازدهار ، ولا غرو فبالإخلاص تذلل العقبات وتجنّى أطيب الثمرات .
وأعود إليكم أيها الأبناء فأقول : أقبّلوا على طلب العلم ولا تقنعوا بالقليل ،
فالقناعة إذا كانت محدودة في كل شيء ، فهي في طلب العلم بغية مرذولة
بل هي موت وفناء ، وهلاك وبلاء ، وما أحب الجشع في التهام العلم والمعرفة
وأجله . إنه جشع عظيم الفائدة عيم العائدة ، وهو جشع يعلى قدر الإنسان ،
ويغضب الشيطان ويُرضى الرحمن .

ومن الحقّ عليكم أيها الأبناء ، أن تكونوا لأساتذتكم مطيعين ،
ولمعلّيككم مكرمين . لأنكم تضمّنون بإكرام أساتذتكم أن يخلصوا النصح لكم
ويفيضوا عليكم كل ما أفاضه الله عليهم ، ويتعهدوكم بما في وسعهم من العناية
والرعاية . وأنتم تذكرون قول القائل :

قم المعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعانت أشرف أو أجل من الذي يبني ويشيئ أنفساً وعقولا ؟
وقول الآخر :

إنَّ المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما

أيها الأبناء الأعزاء :

إنكم تستقبلون عاماً وليداً جديداً ، قد أطلّ علينا وجهه الصبوح ،
في جوٍّ مظلم كالح . وإن العام الهجري الجديد ولم تحل بعد لفائفه ، ليقف
وقفة المشدوه أمام العالم الشرق العربي . ويكاد وهو يحبو في مدارج الطفولة
يتمزّق من الأسى والحسرة حيناً يرى بعض الدول العربية الشقيقة تشقّ
عصا الطاعة ، وتخرّج في السرّ أو في العلانية على الجماعة . ولكن الإسلام
الحنيف قد علمنا الأنياس ، ولقد قال تعالى : « إنه لا يبيأس من رُوح الله
إلا القوم الكافرون » .

وإن المملكة العربية السعودية والمملكة المصرية وقد تعاهدتا على
الأخوة والتضامن . ليضربان المثل العالى أمام الدول الأخرى التى تحيد قليلا
أو كثيراً عن هذا الإخاء والتضامن .

وما دام الإخلاص قائماً — بحمد الله — بين الملكين العظيمين
والمملكتين العظيمتين ، فهذا أساس الخير والبركة ، وهو الفجر الصادق في
حياة العرب والإسلام ، وهو البشير بإذن الله بإتمام الألفة والوحدة والوئام^(١) .

أما أنتم أيها الأبناء ، فاستقبلوا عامكم الدراسى الجديد ، بنفس طيبة ،
وعزيمة قوية ، فأنتم دعامة الأمة في المستقبل ورجاؤها ومناطق أملها ، وحاملو
لوائها ، وقادتها — إن شاء الله — إلى الخير والنجاح .

(١) تدلّ البشائر في هذه الأيام على أن الدول العربية قد تنهت جميعاً — بحمد الله —
إلى كيد الأعداء فلاذت بالتضامن التام ، وسيكون لهذا التضامن أثره — إن شاء الله —
في تحقيق آمال العروبة والإسلام .

(١) هذه الدنيا لمن..؟

يختلف تقدير الناس لهذه الحياة ، وتتعدد وجهاتهم فيها نتيجة لما يحيط بهم من ظروف وملابسات تتحكم في سلوكهم وتصرفاتهم ، وعلى أساس من هذه النظرات المتعددة المتغيرة يبني كل إنسان سعادته ، ويسعى لتحقيق آماله . ومن عجب أن يكون سعى الناس شتى ، وطرائقهم قدداً ، ومع ذلك يفهم كل منهم أن الحق في جانبه وحده — والحق واحد لا يتعدد — والسرف في ذلك واضح لا ريب فيه ، فإن أغلب هؤلاء الناس إنما يزنون أعمالهم بميزان عقولهم — والعقل البشري يخطئ ويصيب — وقيسون تصرفاتهم بمقياس إنساني والإنسان ليس بمعصوم من الأخطاء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل بني آدم خطاء » . !

فهذا الذي ينسى الله جل وعلا ، ويتخذ الله هواه ، ويفهم أن الدنيا ليست إلا في أحضان النعيم ، وفي ظل العيش الرغيد ، وعلى بساط من الخفض والرخاء ، والنعمة والثراء ، فيغرق نفسه في اللذات ، ويبلغ في مستنقع الشهوات مثل هذا ومن يسلك طريقه يفهمون أن الخير كله والسعادة كلها في تصرفاتهم وأن الدنيا لهم وليست لغيرهم .

وهذا الذي ينفق صحته لكي يوفر الذهب ، ويبدد راحته لكي يجمع الرياش والنشب ، دون أن يجعل في ذلك نصيباً مقسوماً ، وحقاً معلوماً للسان والحرور ، ودون أن يتنبه أو يكثر بوعيد الله تعالى حيث يقول : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

يَوْمَ يُجْمَعُ عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تبشر المنفقين بالأجر والثواب ، وتنذر الممسكين بالويل والعذاب . .

أقول إن هذا الذي يمسك يده عن الخير والإففاق دون أن يرغب في ثواب الله أو يخشى عقابه ، مثل هذا ومن يتبع سبيله يفهمون أن الخير والسعادة في سلوكهم ، وأن الدنيا قد ألفت بين أيديهم بزمامها ، وحيزت لهم بمخاديرها . وهذا الفقير المجهود الذي قدر عليه رزقه ، والذي عضه الدهر ، واكتوى بنار الفاقة والعسر . والذي يفتح عينه فيعشى بصره من بريق الذهب في قصور الأغنياء ، ويسيل لعابه على شهي الطعام وغريض الشواء ، ثم لا يجد من يجيب لهفته ، ويطفىء حرقته ، ولا يملك بإزاء ذلك النعيم والمتاع إلا النظر إليه والتحسر عليه .

مثل هذا ومن على شاكلته من البؤساء المحرومين ، والفقراء المعوزين ، يفهمون أن الخير والسعادة قد أصبحت بمنأى عنهم ، وأن الدنيا ليست لهم ، وإنما هي لغيرهم من ذوى النعمة والمال والثراء الوفير .

ومن حقنا الآن أن نتساءل ما هي تلك الدنيا التي يتقاتل الناس من أجلها ويتنافسون في سبيلها ؟ .

لقد وصفها الحكيم العليم في كتابه الكريم فقال : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون

عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تعن بالأمس كذلك
نفصل الآيات لقوم يتفكرون » ، وقال : « اعملوا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو
وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار
نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة
من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم قيمة الدنيا وحقيقتها في أحاديث كثيرة
ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله
مرّاً بالسوق والناس كفتية (أى عن جانبيه) فرجى أسك ميت فتناوله
فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه
لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ ثم قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً
كان عيباً ، إنه أسك (أى صغير الأذن) فكيف وهو ميت ، فقال :
فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم .

ومن حقنا بعد ذلك أيضاً أن نتساءل : لمن تكون هذه الدنيا ؟ وأين المغرم
فيها والمغرم ؟ ومن الظافر فيها والخاسر ؟

لقد تحير كثير من الناس في الإجابة عن هذا السؤال فلم ينتهوا إلى رأى
قاطع ، وأخيراً تمثلوا بقول القائل :

كل من لا قيت يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن ؟
ولو أنصف الناس ورجعوا إلى الدين القويم ، والعقل والمنطق السليم
لوجدوا الجواب واضحاً بلا مرأى ، ودون غموض أو التواء .

إن الدنيا ليست إلا لمن يفهمها ويعلم أنها ظل زائل ، وعرض حائل ،

وممتع قليل ، فيستغلها لعمل الخير والبر والمعروف لكي يحني الثمرة يوم القيامة
سعادة دأمة ونعيا باقياً .

والدنيا ليست إلا لمن يحتقرها ولا يعبأ بسرابها اللامع ، ووميضها الخادع
فإن كان غنياً شكر الله على نعمائه ، وجعل المال وسيلة لا غاية ، وبداية
لا نهاية ، ولم تقتنه النعمة والثراء حتى يركب متن الغرور والكبرياء ، بل كان
في هذه الحياة كأنه غريب أو عابر سبيل . . وإن كان فقيراً أو مريضاً صبر
على البأساء والضراء واطمأن ورضى بالقضاء ، وامثل واستجاب لربه الكريم
الحكيم حيث يقول : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ خَيْرًا وَأَبْقَىٰ » .

وبذلك يستفيد من الحياة ، وتكون الدنيا له لاعليه ، لأنه عرف كيف
يستبدل لذة دأمة وسعادة باقية ، بلذة زائلة وسعادة فانية ، وإنما يكون هذا
للمؤمنين وحدهم دون غيرهم من الكفار أو المنافقين أو الفاسقين ، وفي ذلك
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد في صحيح مسلم عن صهيب رضي الله
عنه : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن
إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان
خيراً له . . »

فالدنيا ليست لمن أوتى المال أو الجاه والسلطان ، إنما الدنيا لمن فاز
بنعمة الإيمان وإن كان حظه من المال قليلاً ، ونصيبه من الجاه
والسلطان ضئيلاً ، بل وإن كان لا يملك من حطام الحياة ومظاهرها فتيلًا .
وبل قد وضع هذا المعنى لكثير من المسلمين الأولين ، فطلبوا الدنيا عن طريق

الإيمان ، وتنافسوا في الخيرات والأعمال الصالحات ، فعاشوا في سعادة وارفعة
الظلال ، ثم صاروا في الآخرة إلى أكرم مصير وخير مآل .

ولعلنا نستطيع الآن أن نُجيب ذلك المتسائل القائل : « لِمَ شَعَرْتُ
هذه الدنيا لمن ؟ » . . . نستطيع أن نجيبه : إن الدنيا لمن انتفع بها انتفاعاً
كاملاً ، واستفاد منها فائدة دائمة ، وَاَتَجَرَ مع الله فَمَا رَأْسَ مَالِهِ إِلَى
عَشْرَةِ أَمْثَالِهِ ، وبذر الحبة فَأَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَلَنْ
يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُحْلَصِينَ : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ، وَالَّذِينَ
إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ،
وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

فالدنيا ليست إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ ، والآخرة ليست إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ ، ومن أُوتِيَ
الإيمان فقد أُوتِيَ كل شيء ، وفاز بالحسنين ، ونال سعادة الدارين ، وصدق
الله العظيم حيث يقول : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(١) الحياة النحالة

يتشبَّثُ الناس جميعاً بالحياة ويود كل إنسان لو يمتد به العمر أحقاباً طويلة حتى إذا ما انتهت تلك الأحقاب لم تزده إلا تعلقاً بالدنيا ، فتمنى لو يتضاعف ذلك الزمن ويتضاعف ، ثم تمنى مع ذلك لو يذهب ليل الشيخوخة وعبوسها لكي يعود إليه نهار الشباب وإشراقه وابتسامه .

وهذه النزعة القوية عند جميع الناس (أعنى حب الحياة وكرهية الموت) نزعة تقضيها طبيعة العمران وعليها يقوم نظام الكون ، ولولاها لأقدم على التخلص من الحياة كل إنسان تفاجئه النوازل أو تحل به الكوارث — وم في الحياة من آلام وشدائد — وحينئذ تفقر الدنيا عما قليل من البشر ، وينحدر العالم سريعاً إلى الفناء والزوال .

ولا شك أن المتتبع لأحوال الناس واتجاهاتهم يلاحظ أن الشيء المتغلب والمتحكم في سلوك الأفراد وتصرفاتهم هو حب البقاء والتشبث بالحياة ، وإن كانوا يتفاوتون في ذلك ، وتختلف الأسباب التي يتمسكون بها لتحقيق تلك الغاية .

بيد أن العمر مهما طال فهو قصير لأن له غاية معلومة ، والأجل مهما امتد فهو ضئيل لأن له نهاية محتومة ، وإذا أوفى الإنسان على الغاية ووصل إلى النهاية نظر إلى نفسه فوجد أن ما مضى فات ، وما فات مات ، ووجد السنين — على طولها وكثرتها — قد مرت مرور الطيف وتولت كأنها سحابة صيف ،

وإذ ذاك يتساوى من عاش عشرين أو أربعين أو خمسين عاماً بمن عاش مائة أو مئات من الأعوام .

وإذن فالتقياس الصحيح الذى تقاس به الحياة وتوزن على ضوئه الآجال والأعمار ليس هو السنين الطويلة ولا الزمن المديد ، وإنما هو العمل الصالح والأثر الخالد الحميد . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) والصدقة الجارية هى المعروف المغدق الذى تتجدد ثماره وتتوالى آثاره ، والعلم الذى ينتفع به هو العلم الذى يتجه إلى البناء والتعمير لا إلى الإفناء والتدمير ، والولد الصالح هو الغراس الطيب الذى طهرت بيئته . واكتملت له أسباب العناية ، واختار الله له طريق الهداية ، وهو العمر الثانى ، والذكرى الحميدة ، والثمرة الناضجة التى ينتفع بها الوالد فيمنحه الله بها حياة على حياته ، ورحمة بعد وفاته ، والشاعر العربى يقول :

عمر الرجال يقاس بالجد الذى شادوه لا بتقدم الميـلاد
ومن الشعر الحكيم الخالد :

تموت أحاديث الرجال وتنقضى ويبقى حديث الفضل والحسنات

ولهذه الأقوال الحكيمة ما يؤيدها من أحداث التاريخ وعبره ، وسير الرجال وأخبارهم ، فتعالوا معى نتبع أنباء العطاء وقادة الفكر وزعماء العالم فى عصرنا الذى نعيش فيه ، بل وفى العصور الخالية ، فإننا بلا شك سنجد أناساً ضمتهم الأرض فى بطنها منذ مئات السنين ، ومع ذلك فهم أحياء بين ظهرانينا بأعمالهم الخالدة وآثارهم الطيبة ، وإن تاريخهم الجيد ليقترأ أمام

الناظرين صورة قوية تفيض بالحياة بل وتغدو وتروح فتملك الأسماع والأبصار ، وتهز بروعتها الخواطر والمشاعر ، وتحى القلوب الهامدة ، وتحرك العواطف الخاملة ، وتبنى وتنشئ أنفساً وعقولا .

ولإنهم ليعتزون أمام أعيننا غزاة فاتحين يرفعون كلمة الإسلام ويجاهدون في سبيل الله ، ويبيعون أنفسهم رخيصة ابتغاء مرضاة الله ، ويتدافعون بالمناكب في ميدان القتال والنضال فرحين مسرورين وإن صوت أحدهم ليجلجل في مسمع الزمن وهو يخطر في حومة الوغى ويخطو إلى الموت ويلقى بالثمرات من يديه ويتغنى ويقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد غرصة النفاذ

غير التقى والبر والرشاد

وهكذا نرى الرجال العاملين أحياء في أذهان الناس بما أسدوا إلى الإنسانية من الآلاء والأيدى البيضاء ، وهم في حقيقة الأمر قد استقروا في الأجداث من مئات السنين ، وسكنوا البرازخ منذ حين أي حين .

وإلى جانب هؤلاء الأبطال والغضاء الذين خلد التاريخ ذكركم وتعطرت أنفاسه بسيرتهم ، يعيش أقوام على هامش الحياة ، كما تعيش الهوام والحشرات وياكلون ويتمتعون كما ترنع البهائم العجاوات ، وربما امتد الزمن ببعضهم إلى أرذل العمر ، حتى إذا ما جاء أجله فارق الحياة فلم تحفل به الحياة ، وودع الدنيا دون أن تشعر الدنيا بوجوده ، أو تأسى لفراقه ، وكعب التاريخ صفحة حياته دماثة في وجه المجتمع ، ولوثة في جبين الإنسانية .

ومثل هؤلاء الناس هم في حال وجودهم على ظهر الأرض أموات غير أحياء ،
فما ظنكم بهم حينما ينطوون تحت الرغام وبين أطباق الظلام ؟ إنهم
يزدادون موتاً على موتهم ، وإن بقي من أثرهم شيء فليس إلا الشرّ والويل ،
وحينما يأتي يوم القيامة ، يتمنون لو ترجع الدنيا لهم ، أو يرجعون إلى الدنيا
يوماً واحداً ، ويقولون : يا ليتنا نردّ ففعل غير الذي كنّا نعمل . ولكن
هيهات أن يحقق الله رجاءهم بعد أن نفذ فيهم سهم القضاء ، وكانوا لأنفسهم
من الظالمين .

إن الحياة الخالدة ، لا تقوم إلا على دعائم قوية من الخلق الكريم ،
والدين القويم الذي يكون للإنسان ذكراً عاطراً بعد موته ، وذخراً نافعاً
بين يديه يوم القيامة . وإن لكم في تعاليم الإسلام وآدابه ، ما يحقق لكم
هذه الغاية الكريمة ، ولا غرو فالإسلام دين الإنسانية ، حارب الأثرة
والأنانية ، وقضى على النزعات الفردية البغيضة ، وأقام مقامها التضامن
والتعاون والأخوة الكريمة ؛ وما تمسك إنسان بمبادئ الإسلام ونفذها
في نفسه وفي أهله وعشيرته ، وفي العلاقات القائمة بينه وبين سائر الأفراد ،
إلا سعد في دنياه وآخرته ، ووهبت له الحياة الكريمة الخالدة .

وفي ثنايا التاريخ الإسلامي ، أمثلة رائعة ، تصوّر لكم الحياة ،
ومعنى الخلود فيها ، ولسنا بحاجة ، ولستم أيضاً بحاجة إلى أن نتحدث
إليكم عن المثات بل عن الألوف من رجالات الإسلام الخالدين ، وهم
الأبطال الذين عاشوا على ظهر الأرض ، فكانت حياتهم طيبة ، وحينما
فارقوا الدنيا لم تنته حياتهم ، بل ابتدأت من جديد ، وأشرقَت صفحة
مجيدة في سجل الخلود .

(١) رضا الناس غاية لا تدرك

إن مقاييس الخير والشر لدى البشر مختلفة ، وموازن الحق والباطل عندهم متنوعة ؛ والحسن والقبح لا يتساوى الناس في مدى إدراكهما والإحساس بهما ، ومن أجل ذلك تنوعت الأغراض واختلقت الأهواء . وصارت الحياة مزيجاً من الخير والشر والحق والباطل ؛ فإمام عادل وإمام جائر ، ومؤمن صادق وفاسق منافق ، وبطل صنيدي وجبان رعديد ، ومجاهد يبذل نفسه ليرفع كلمة الإسلام ، وآخر يلهو ويلعب ويتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام ، وللفضيلة أنصار وأعوان يؤيدونها ، ويبذلون النفس والنفيس في سبيلها ، وللرذيلة أنصار وأعوان يسخرون من أعوان الفضيلة ويهزأون بهم .. وهكذا كانت الحياة ولا تزال معرضاً للأعاجيب ومسرحاً للغرائب ، وتلك سنة الله في خلقه ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

وإذا كان رأى الناس لا يمكن أن يجتمع على شيء حسنٍ أو قبيحٍ ، فهل يمكن أن يرجو إنسان كائناً من كان أن يجتمع الناس على الإعجاب به والرضى عنه والاطمئنان إليه ؟

لقد قصَّ الله عزَّ وجل علينا من أنباء الرسل — وهم الذين صنعهم الله على عينه واصطفاهم وطهرهم ومنحهم من المزايا العقلية والخلقية ما لم يتيسر لغيرهم — قصَّ الله علينا من أنبيائهم أنهم كذبوا وأودوا ، وأن الناس قد تقولوا عليهم الأقاويل ، ورموهم بالزيف والبهتان والتضليل ، وما من مصلح أوزعيم — مهما أوتي من عقل ناضج وإخلاص وإيثار — استطاع أن يرضى الناس جميعاً ، وأن يسلم من النقد والتجريح والقول القبيح .

وإذن فليس من العقل ولا من الدين أن يصدر الإنسان في أعماله عن غرض خاص هو إرضاء الناس فحسب ، وأن يعلق آماله بشيء وهمي خيالي لا سبيل إلى تحقيقه ، بل ولا فائدة في تحقيقه ، إنما العقل والدين يقضيان بأن يسعى الإنسان لغرض خاص هو إرضاء الله ، ولا يعنيه بعد ذلك أن يرضى الناس أم سخطوا ، أعلنوا الحرب عليه أم سالموا والعقل والدين يقضيان ألا يحامل الإنسان أحداً على حساب الحق والخلق ، وألا يتغاضى عن منكر من القول أو الفعل إرضاءً لعظيم أو كبير ، وألا يسلك سبيل المداينة والرياء والمراوغة والالتواء ، فيسكت عن ظلم الظالم وإثم الآثم حرصاً على منصب أو إرضاء لحاكم ..

ولست أريد بذلك أن يتخطى الإنسان حدود الذوق والأدب فيتجاهل أمر الناس أو يهاجمهم في سلوكهم وآرائهم بطريقة جافية نابية ، لست أريد ذلك ، فإن الدين يأمر المسلم أن يدعو للحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، إنما أريد أن يجعل الإنسان هدفه الأساسي إرضاء الله بقدر ما يستطيع ، متمشياً مع الإنصاف وسالكاً سبيل الحق المشروع .

وقد أرشد الله عز وجل إلى ما يرضيه فقال في محكم كتابه : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

وثبت في صحيح مسلم عن أبي عمرو عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدٌ غيرك ؟ قال : « قل آمنت بالله ثم استقم »

ألا إن رضا الناس غاية لا تدرك بحال ، ومن تعلقت آماله بها فقد
تشبت بالوهم والخيال ، ولو تحققت المعجزة لإنسان فاتفق الناس على محبته
ورضوا جميعاً عنه ، فماذا تجديه تلك المحبة والرضا إذا لم ترتكز على أساس
من محبة الله ورضوانه ؟

وإن رضا الله غايةً قريبة المآل ، قد ضمنها الله لعباده بالتقوى والإخلاص
والعمل الصالح ، ووعد بها ووعدته المحتوم الوفاء
والخير كل الخير للإنسان أن يعمل على إرضاء من يستطيع من أهله
وعشيرته وذويه ومن يتصل معه بأى سبب ، كي يضمن صفاء الجو المحيط به
ونقاء من عناصر الشر والفتنة ، فإن توقف رضى أحد من الناس على ما يسخط
الله ويغضبه فـ « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » إنما الطاعة لله وحده ،
وحسب المؤمن أن يرضى الله وحده ولو سخط الناس عليه جميعاً ، وكفى الله
وليّاً ، وكفى بالله نصيراً .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
هـ	تقديم بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجبار
١	مقدمة المؤلف
١١	لبيت رب يحميه
١٧	الوازع الديني
٢١	في غار حراء
٢٦	مثل رائحة من الإيمان
٣٢	عاقبة الظلم وجزاء الإحسان
٣٩	الإسراء والمعراج
٤٥	مواطن العبر في غزوة بدر الكبرى
٥٢	بين يهود الأمس واليوم
٥٨	غيرة محمودة وتنافس شريف
٦٥	الثلاثة الذين خلفوا
٧٠	الإسلام والعصية
٧٦	توزيع العطاء بين المسلمين
٨٢	الإسلام يحارب الفقر
٩١	بين العلماء والملوك
٩٦	ولا تطع كل حلاف مهين
٩٩	إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا
١٠٢	الرشوة والهدية
١٠٥	راقبوا الله في يتاى

الصفحة	الموضوع
١٠٨	في ظلال الصبر الجميل
١١٣	أثر الصوم في إصلاح المجتمع
١١٨	الأغاني والموسيقى
١٢٤	التغالي في المهور
١٢٩	حقوق الزوجية
١٣٧	ووصينا الإنسان بوالديه
١٤٢	من أب لأبنائه «١»
١٤٥	من أب لأبنائه «٢»
١٥٠	هذه الدنيا لمن ؟
١٥٥	الحياة الخالدة
١٥٩	رضا الناس غاية لا تدرك

تصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية يسيرة نرجو تصحيحها كالآتي :

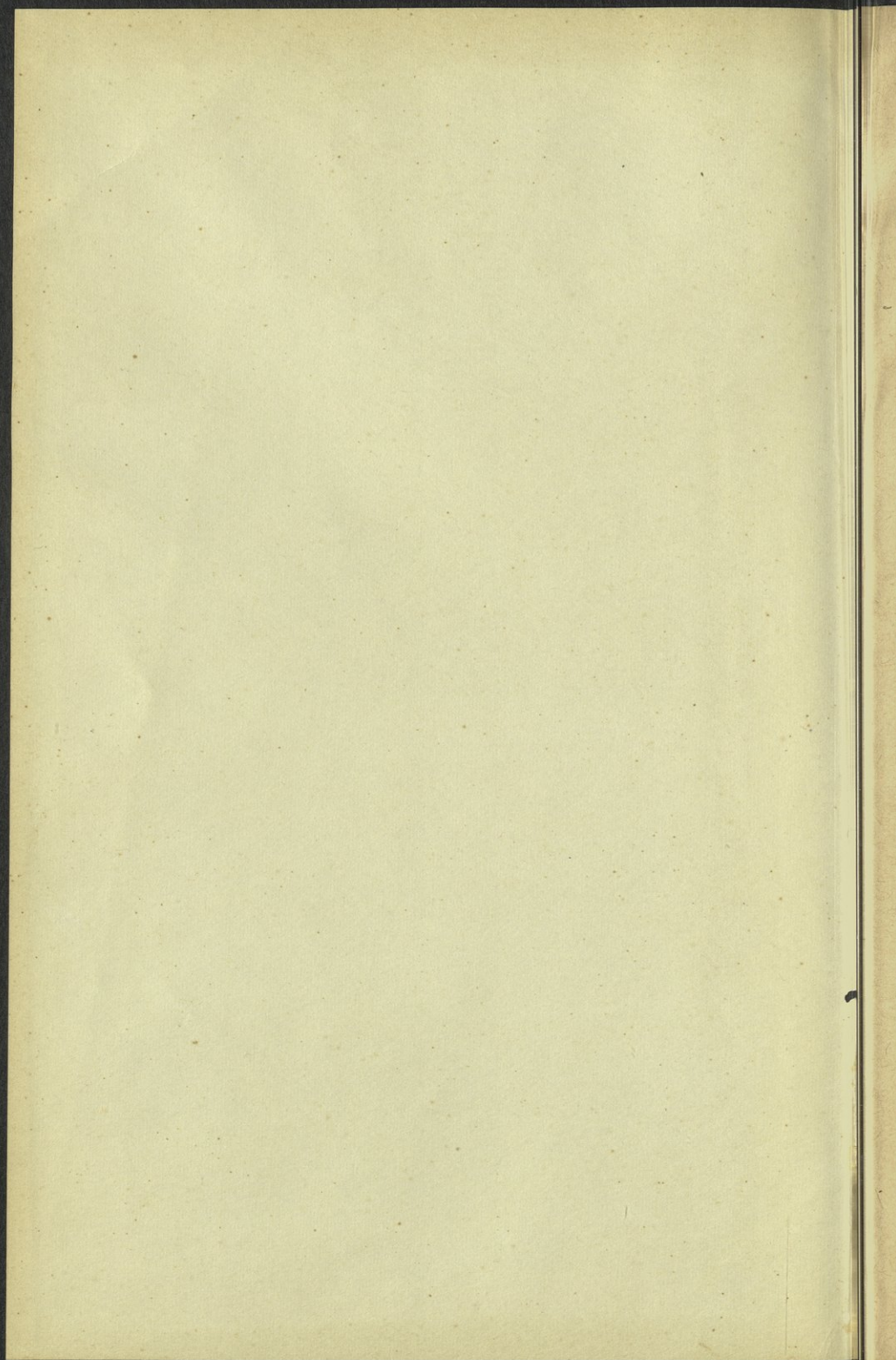
٢٠/٢ وفرغ من بنائه سنة ٣٦١ هـ ، ٢٢/٢ الموالى ، ٧/٤ الفضاء ،
 ٢٠/٤ الأ كفاء ، ٧/١٠ فتنج ، ٣١/١٨ نُضج ، ٩/٢٤ تشع ، ١/٢٥ ،
 السكوة ، ٢/٤٥ اطلع ، ٩/٨٦ أغنياؤهم ، ٣/٩٥ والأدواء .

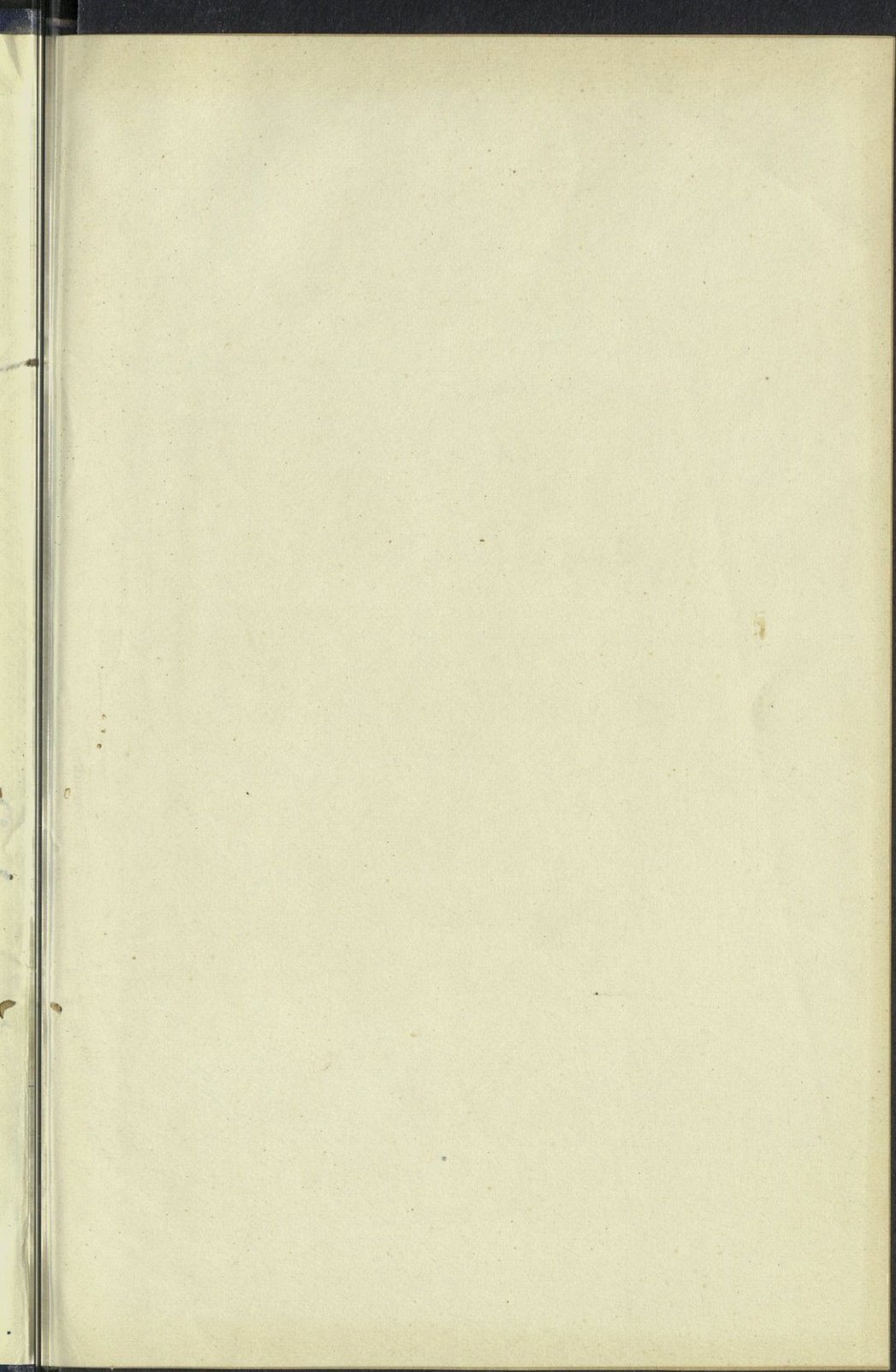
للمؤلف

- (١) الموالى فى العصر الأموى
(٢) من وحي البلد الأمين
- { نشرتهما مكتبة الخانجي بمصر
-

ويظهر قريبا إن شاء الله

- (٣) الموالى فى العصر العباسى الأول
(٤) الحجاز كما رأيته
-





297.04:N16mA:c.1

النجار، محمد الطيب

من وحى البلد الامين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01005831



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

